

هشام الخشن

بالحبر الأزرق

رواية

الدار المصرية اللبنانية

بالحبر الأزرق

هشام الخشن

1

مفكرة سيدني بويد



2فبراير1914

مضى أكثر من شهر الآن منذ انتقالي من الأدميرالية إلى مكتب الخدمة السرِّية. في نهاية ديسمبر الماضي استدعاني الكابتن مانسفيلد كامينج إلى مكتبه في رقم 2 وايتهول بلندن ليُخطرني بأنه طلب ضمِّي إلى فريق العمل بالخدمة السرية. كان ذلك بعد لقائي به صدفة قبل ذلك بعدة شهور تعدَّدت فيه أسئلته لي عن خدمتي بالبحرية، ومن قبلها تخرُّجي في جامعة أوكسفورد. يوم أخبرني بضمِّي لفريقه نوَّه لي عن أن دراستي لتاريخ شمال إفريقيا بالذات ستكون إضافة يحتاجها العمل في الفترة التالية. أصابني شيء من عدم الارتياح وهو يثمِّن مشاركتي في معركة أم درمان، مشيرًا إلى أن خبراتي هناك ستكون إضافة في منصبي الجديد. أسهب كامينج أو «سي»، كما يُفضِّل أن يُطلق عليه العاملون معه، في شرح مجالات أنشطتنا وأهميتها في الزمن الذي نعيشه والذي تلفُّه صراعات إمبراطوريات عدة من أجل البقاء والسيادة.

لم أتوقع، بعد الحماس المفرط في حديث «سي» يوم استلامي عملي، أن تمر أيامي في وظيفتي الجديدة بهذا القدر من الملل وأن أمتلئ ضجرًا بتشابهها. شهر بأكمله أذهب إلى مكتبي الجديد فيمر اليوم دون أن أكلف بعملٍ أو أجد مَن أكلمه. حين استدعاني «سي» للقائه اليوم عزمت على الشكوى والمطالبة بإلغاء نقلي والعودة إلى الأدميرالية من جديد. لكنه على ما اعتدته منه في لقاءاتي السابقة لم يُعطني فرصة للتحدُّث. انطلق في حديثٍ طويلٍ متوالٍ دون انقطاع عن مصر وأهميتها. أسهب في توضيح أن بريطانيا العظمى تعمل على انفصالها

عن الإمبراطورية العثمانية التي وصفها بأنها مريضة. طلب مني أن أبدأ في دراسة كل الملفات الموجودة بالمكتب عن هذا البلد وأن أعد نفسي للسفر إلى هناك في خلال شهر على الأكثر مُكلفًا بمهمة بالغة السرية وعد بإطلاعي على تفاصيلها في وقتٍ قريب. قبل أن أغادر مكتبه أشار عليَّ بضرورة مقابلة سيدة بريطانية عاشت أكثر من أربعين عامًا في مصر وعادت لتوها إلى إنجلترا لأول مرة، فيما يظن، منذ تركتها أواخر ستينيات القرن الماضي. أعطاني ورقة مطوية مكتوبًا عليها:

ليديا ستون - الجناح رقم 35 - فندق الغرب الملكي العظيم - بادينجتون

قضيت معظم صباحي أتفحص ما وجدته في الأرشيف من ملفات عن مصر. أغلب ما في الملفات كانت خرائط موضح عليها المدن المختلفة. وجدت خريطتين مفصلتين للقاهرة والإسكندرية أمعنت في دراستهما. بالإضافة للخرائط كانت هناك قصاصات من صحف إنجليزية تتكلم عن مصر ومشاكلها ودعوات التحرُّر التي صدحت بها الحركة الوطنية هناك منذ أصبحت تحت حماية بريطانية غير معلنة. قرأت فيما قرأت رسائل من اللورد كرومر واللورد كتشنر عن فترات تواجدهما في هذا البلد، وعن وجهات نظرهما فيما يريانه قادمًا فيما يخص علاقة بريطانيا بمصر. طوال تصفحي للملفات ظلت ليديا ستون مسيطرة على فكري: ما الذي جعلها تُمضي أغلب عمرها في بلد غريب دون أن تعود ولو مرة واحدة إلى إنجلترا؟ ما الذي أبقاها هناك ذلك الزمن الممتد؟ ازداد غيظي من «سي» وكيف لم يُعطني معلومات كافية عنها. اكتفى كعادته بتعليمات موجزة دون إفصاح تاركًا لي واجب البحث عن المزيد.

مع حلول الظهيرة قررت أن أتجه إلى بادينجتون لأزور تلك السيدة الغامضة. حين وصلت إلى الفندق توجَّهت إلى موظف الاستقبال طالبًا مقابلتها. أومأ برأسه إلى نادل يقف في بهو الفندق فتقدَّم نحوي حاملًا صينية فضية. فهمت مراده فأخرجت بطاقة تعارُف تقدمني كصحفي

في التايمز باسم مستعار، تمامًا مثل تعليمات مكتب الخدمة السرية ألا نكشف عن هويتنا الحقيقية. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يعود النادل ويطلب مني أن أتبعه. قادني إلى الجناح رقم 35 بالفندق وتوقف أمام بابه ونقره ثلاث مرات بهدوء.

فتح الباب شاب شديد السمار أفسح لي وهو يدعوني إلى الدخول. وجدت سيدة عجوزًا تتوسط صالون الجناح. أشارت إليّ لأجلس قبالتها في حين وقف الأسود خلفها وقد ربع ذراعيه كالتمثال. قدمت نفسي شارحًا أنني صحفي أريد إجراء حديث معها عن مصر وأحوالها بحكم ما نما إلى علمي من طول إقامتها في هذا البلد. ظلّت صامتة، بينما عيناها تتجولان، من وسط التجاعيد المستعمرة لوجهها، ناظرة إليّ حينًا، وسارحة بين جدران الحجرة في أغلب الأحيان. ثم بادرتني مضيِّفتي بما وجدته غريبًا أرى من واجبي أن أدونه هنا بدقة:

- مَن أرسلك؟ موريسون؟

أكدت من جديد أنني صحفي أرغب في نشر مقالٍ عنها.

- هل أصبح مكتب الشئون الخارجية يوظف الصحفيين بدلًا من المربيات؟

- لا أدري يا سيدتي عمَّ تتكلمين.

- وعدني موريسون ولم يفِ بوعده.. أربعون عامًا من الكذب!

- لا أعرف السيد موريسون يا سيدتي.. هل يمكن أن نبدأ حديثنا لو سمحتِ لي؟!

طال صمتها وهي تُحدِّق في عيني. ذُهلت حين وجدت الدموع تنسال على خديها. لم أدرِ ما يجب أن أقول أو أفعل. أخرجت هي منديلًا من كُمِّها ومسحت دموعها. عادت تقول:

- لن أتكلم معك طالما لا تصارحني بالحقيقة.

ثم بصوتٍ خفيضٍ استرسلت:

- هل وجدتموه؟ لم أطلب من الحكومة سوى أن تدلوني عليه. لم أقصِّر يومًا في أداء مهمتي، وفي مقابل هذا لم أجد منكم سوى المماطلة.

أطالت النظر إليّ متفحصة قبل أن تسألني متى ولدت؟ تعجبت من سؤالها، وإن أجبتها بأنني من مواليد 1868. انفرجت أساريرها وفاجأتني بقيامها من مقعدها ومشيها نحوي حتى وقفت قبالتي بيدها ممدودة وتحسست وجهي. لم أعرف كيف أتفاعل مع الوضع الغريب الذي أصبحت فيه. رفعت عنّي الحرج الذي أصابني لمّا عادت من جديد إلى كرسيها. كل هذا والأسود ما زال قابعًا في مكانه. حينذاك أدركت أنني أمام عجوزٍ تهذي. قررت أن أجاريها ما استطعت لعلي أستخرج منها أي معلومات مفيدة، وإن تسرَّب بداخلي الشك في هذا. ساد مجلسنا صمت مريب قطعته بأن قلت لها اسمي الحقيقي ووظيفتي بمكتب الخدمة السرية. لم أدرِ لماذا فعلت ذلك؟ وما زلت حتى الآن ألوم نفسي على تهوري هذا وما به من مخالفة للتعليمات. أظنني وجدت في ذلك سبيلًا لكسب ثقتها وجعلها تتحدث بأريحية. على كل حالٍ، أتبعت ذلك بأن قلت لها: إن الحكومة البريطانية أرسلتني خصيصًا لأستمع إلى طلباتها وأقوم على تحقيقها. علت تقاطيعها راحة كما توقعت مع ما أسررت به إليها. غطّت ابتسامتها تجاعيدها وأشرق وجهها. لم يطل سكونها قبل أن تسألني:

- ألن تخذلني يا سيدني؟

أجبتها مؤكدًا أنني سأفعل ما بوسعي لتحقيق رغباتها. نظرت إليّ بتفحُّصٍ قبل أن تومئ إلى الواقف خلفها وتبدأ في التحدُّث إليه باللغة العربية، فيما أعتقد. سارع بعد ذلك إلى غرفة النوم وعاد يحمل حافظة جلدية اكتظّت بأوراقٍ مصفرة.

- طالما تُقت إلى أن يقرأ أحد هذه الأوراق.. لا أدري لماذا أثق بك لأن تكون أول مَن يقرأها، ولكني أشعر بقربٍ غير مفهوم منك.. اقرأها ثم

غد لنتحدث وقد عرفتني واطلعت على تفاصيل رحلتي.

همهمت وهي تُفهمني محتوى الأوراق التي أعطتني. شعرت أنها سلّمتني كنزًا من المعلومات إن صدقت فيما قالت. فهمت أن بالأوراق نوعًا من التدوين لما عاشته في الشرق. أصبح بي شغف أن أبدأ في مطالعة ما تحتويه الأوراق التي أصبحت بيدي. غادرتها على وعدٍ بلقاءٍ قريبٍ معها. فضّلت ألا أعود إلى المكتب وتوجهت إلى بيتي مسرعًا. سأبدأ على الفور في قراءة ما أعطته لي.



لندن 14 يوليو 1869

هنري العزيز..

أكتب إليك وقد مر عام على لقائنا.. ومر نفس العام على فراقنا. لا تفارقني في يقظتي ولا أمَل من تملكك أحلامي. قد تستغرب لمَ لم أكتب لك قبل الآن فيكون ردي: اشتقت لك حبيبي وحاولت كبت تلك المشاعر، والآن أكتب إليك لعلَ رسالتي هذه تهدئ من ضراوة ما بي من فقد. لا أدري ولكن حين سطرت أول حرفِ في هذه الرسالة شعرت بك بين أحضاني من جديد فامتلأت، مع استرجاعي لإحساس ملمسك، برائحتك التي سكنت أنفي ولم تُفارقني منذ باعدت بيننا المسافات والأيام.

أظنني يجب أن أتوقف هنا عن وصف توقي إليك وافتقادي لك كي لا تتحول رسالتي هذه إلى مرثية عاشقة لا نهاية لها.

حبيبي.. أكتب لك من لندن وأكيد سترغب في أن تعرف كيف وصلت إلى عاصمة الإمبراطورية وماذا أفعل فيها؟ على الرغم من أن مكوثي بها يلامس الآن خط نهايته سأستميحك صبرًا أن أسرد عليك كيف قادتني الأقدار إلى هنا، وكيف تخطط لمحطتي التالية. لقد عاهدت نفسي أن أشركك حياتي ولو عن بُعد فيما مر وفيما هو آتِ. قررت ذلك وأنا أعلم أن الأمل شبه معدوم في أن تصلك رسائلي، ولكني مستمسكة بذلك الطيف الخافت من أمل أن تستطيع يومًا قراءة تفاصيل ما عشته بعيدًا عنك فيكون لقاؤنا ـ إن حدث يومًا ـ محوره ما سنقضيه معًا من أوقات، لا ما فوته علينا الزمن من لحظات كان واجبًا أن نستدفئ فيها بقربنا.

بعد أن تركتك أصبح استمرار وجودي في برمنجهام لا طاقة لي به بما

تحوي من ذكريات دكانتها سوَّدت أيامي. حزمت حقائبي ولملمت شتاتي وأخذت قطارًا إلى لندن آملة في بداية جديدة تُنسيني مرارة الظلم الذي تعرَّضت له. فوجئت لمَّا وصلت إلى محطة پادينجتون، أن استقبال أكبر مدينة في العالم لزوارها أبعد ما يكون عمَّا رسمته قصصها في أذهان مَن أتوها حالمين بما يدغدغ حواسهم. على العكس من ذلك وجدت الشوارع منفرة وكأنها تزيل عامدة من مخيلة الوصول ما صبوا إليه حين شدوا رحالهم. الخيول والمركبات التي تشدها تسيطر على الطرقات مشهدًا ورائحة. أول ما أحسست به وأنا أخطو في شوارعها كان غوص قدمَي في طبقةٍ لزجةٍ من الطين مركونة على جوانب طرقاتها. لم يكن ما غصت به سوى روث الخيول المبلل وقد جمعه فتيان عرفت فيما بعد أن البلدية وظفتهم ليمرقوا إلى وسط الطريق كل آن وآخر فيدفعوا مخلفات الخيل إلى جوانب الممرات. حاولت استنشاق نقاءٍ ولكن رائحة الفضلات عبَّأت الأجواء واكتمل المشهد بشيءٍ من الدخان الرمادي جثم على الأجواء مُرغمًا أشعة الشمس على الانسحاب وكأنها ملّت محاولة اختراق تلك القتامة. شعرت بدوارٍ خفيفٍ سرعان ما استكثره عليَّ ضجيج حوافر الخيول وصراخ سائقيها وأصوات عجلات المركبات وهي تمرق يمينًا ويسارًا في هرجٍ شديد التنظيم.

فجأة يا هنري، من وسط كل القبح الذي لم يترك لي حاسة دون أن يتغلغل إليها، وقع نظري على مبنى مهيبٍ، ربض بفخامةٍ على الناحية الأخرى من محطة پادينجتون. وجدت في جمال البناية ما جعلني أهرول نحوها دون أن أدري غرضي من ذلك. توقفت لحظات ألتقط أنفاسي قبل أن أقرر أن أخطو إلى داخلها بلا سببٍ معقول. مكان أعلم بالتأكيد أنه ليس لأمثالي، من ذوي القدرات المالية المحدودة، ومع هذا لم يمنعني ذلك من اقتحامه. دخلت إلى البهو فبدا لي أن الزمن توقف، وعيون الموظفين الواقفين في الاستقبال متسمِّرة على تلك الفتاة البسيطة التي وقفت أمامهم حاملة حقيبتها البالية. استجمعت شجاعتي، وكأن دخولي إلى هذا المكان الفخم مقصود، وتوجهت إلى

أحد الرجال المستغربين وجودي متسائلة إن كان لديهم وظيفة لي. لم يرد عليَّ وأمسك بساعدي وقادني إلى الباب الذي دخلت منه لتوي. أصبحت من جديد في وسط الضجيج والعطانة والقتامة التي ظننت أنني هربت منها. لم ينطق وهو يُشير إلى باب جانبي فهمت أنه يدعوني إلى التوجُه إليه. حين وصلت إلى باب المستخدمين وجدت ورقة معلقة تُعلن عن حاجة المكان إلى خادمات غرف. لن أطيل عليك عزيزي ولكني وبتصاريف القدر أصبحت خادمة غرف في أحد أفخم فنادق لندن: فندق الغرب الملكي العظيم، واسمه فعلًا على مسمى، فهو عظيم وملكي على أقل وصف. لم أكن أستطيع أن أحلم بأفضل من ذلك. إذ هأنذا مع وصولي إلى لندن أجد وظيفة لا أقتات منها فقط، ولكن توفر لي إقامة. شعرت أني محظوظة بذلك، وأنا مَن لم تكن تعرف أين ستقضي لياليها الأولى في العاصمة.

لم يضايقني وضعي الجديد مدة الأسبوعين الأولين لي في لندن، ولعل سبب ذلك أنني لم أجد برهة لالتقاط أنفاسي. يومي يبدأ في السادسة صباحًا حيث أنشغل أنا والخمس فتيات الأخريات في تحضير الإفطار للنزلاء وما إن ينتهوا منه ويشرعوا في الخروج من غرفهم حتى نتوزْع لتنظيف وترتيب الغرف. نعمل ونحن مراقبون مراقبة صارمة من المستر چوردون مدير الفندق الذي لا يرحم إن وجد شبهة تقصير في تنفيذ تعليماته متناهية الدقة فيما يخص مهامنا. حين ننتهي من التنظيف يكون وقت الغداء قد حان، ومن بعده ننهمك في إعادة ترتيب المطاعم وحجرات التدخين استعدادًا لخدمة شاي المساء، ومن بعدها وجبة العشاء. لعلك تظن يا هنري أن يومي مع نهاية الوجبة الليلية يكون قد انتهى، لكن ظنك في غير محله. تستمر نوبة العمل مع سهر السادة النزلاء في بهو الفندق، عادة إلى ما بعد منتصف الليل، وهم يحتسون الويسكي الأسكتلندي. لم يكن لديَّ نصف فرصة لأفكر فيما آلت إليه أموري؛ إذ إنني حين كنت أصل إلى فراشي، لم تكن بي قدرة سوى أن أغط في سُباتٍ عميق.

الإرهاق الذي كنت عليه لم يمنع عني الحلم يا حبيبي. لم تكن أحلامًا بقدر ما كانت استرجاعًا لما مررت به. مشاهد من حياتي تتسارع عليّ في نومي. تبدأ دائمًا بوجهك الجميل لتصاحبه ابتسامتي قبل أن تتبعها مشاهد لما مررت به في أعوامي الثلاث الماضية. أرى أبي يوم عاد من البنك وقد فقد وظيفته نتيجة الأزمة الشهيرة التي ضربت إنجلترا كلها، وإن اختارت أن تهبط بأسرتنا من مرتبة الأسر الهانئة درجات لنصبح من أهل العوز. أحلم يوميًا بأول يوم التحقت بالعمل لدى آل هارقي مربية ومعلمة للشقيقتين الصغيرتين. ثم تتبع ذلك مشاهد متسارعة لأحداثٍ لو بيدي لغيرت جميع تفاصيلها، قبل أن تطل عليّ أنت من جديد فأتأرجح بين حزنٍ وسرور.

لم يطل بي الوقت قبل أن أبدأ في النظر حولي ويتسلل إلى داخلي نوع من الرفض لما فرضه عليّ هروبي إلى لندن. أنظر إلى زميلاتي في العمل فأجد أغلبيتهن من الأيرلنديات البسيطات اللوائي لم يحظين بشيءٍ ولو طفيفٍ من تعليمي. لا تسئ فهمي، فلم أكن يومًا متكبرة، ولكن لم أستطع أن أتقبل أن يُنظر إليّ باعتباري واحدة منهن. كيف يتسنّى لي ذلك وقد قرأت شكسپير وديكنز وأوستن ولورد بيرون، ودرست تاريخ وجغرافية أوڒبا والعالم. تعاظم يومًا بعد يوم استفزازي من لهجتهن الريفية الهجينة وتلحينهن للكلمات، وأنا الطليقة في الفرنسية والإيطالية كأهل بلادها، وقارئة اللاتينية كالرومان. لم أستطع أن أتصور نفسي في سذاجة روزماري، رفيقة غرفة نومي ذات الخمسة عشر ربيعًا، أو أن يكون أقصى طموحي، مثلها، أن أصبح رئيسة خادمات الغرف. هي وزميلاتنا الأخريات لا يأملن في أكثر من زيجةٍ من أحد موظفي الفندق، وترقٍّ في سلك مستخدميه. تذكرت أيام كانت مثيلاتهن يخدمنني في منزل آل هارقي في برمنجهام فأحزنني هواني وما آلت إليه أحوالي.

سيطرة هاجس هبوطي إلى أدنى مراتب المجتمع اللندني شغل بالي وجعل بي صراعًا مستمرًا. أصبحت أتلمس، دون جدوى، أي وسيلة

ممكنة تخرجني من الدوامة التي أحاطت بي.

ثم كان ذلك اليوم الذي وجدت فيه جريدة التايمز ملقاة على جانب السرير في إحدى غرف النزلاء التي أقوم بتنظيفها. تصفحتها فلفت انتباهي صفحات الإعلانات بالجريدة. في تلك اللحظة قررت أن أستغني عن أكثر من نصف ما أحتكم عليه من شيلينات معدودة ثمنًا لإعلان صغير لعلّ فيه طوق نجاتي من وعيي الذي كرهته.

«امرأة شابة من عائلة محترمة وتعليم ممتاز ترغب في وظيفة مربية عند عائلة ذات حيثية».

تلك الكلمات القليلة كانت كل ما تحمَّلته ميزانيتي الهزيلة سطورًا في التايمز. كنت أعلم أنه إعلان في الأغلب لن يشد الانتباه، إذ لم يشمل أن لديَّ توصية أو شهادة خبرة. أخذت أفكر في قصة خيالية أغطِّي بها الحقيقة إن حظيت بمقابلة لدى إحدى الأسر. قررت أن أقول لهم إن سألوا، ولابد أنهم سائلون، إن الأسرة السابقة التي عملت معها هاجروا إلى أمريكا في عجالة، فتركوني على وعدٍ بإرسال التوصية من مهجرهم.

لا أستطيع يا حبيبي وصف مشاعري حين وصلتني رسالة، على صندوق البريد المخصص لذلك بالجريدة، تدعوني لمقابلة. أصابتني الفرحة وأنا أرى شعاعًا من أمل، وإن شاب فرحتي اضطراب ممَّا لن أجد له ردًا حين يُطلب مني قَص خبراتي السابقة وما حدث مع العائلة التي كنت جزءًا منها.

لكني لم أكن لأفوت الفرصة حتى لو ظننت نجاحي مستحيلًا. وصلت إلى شارع الملك تشارلز في الموعد المحدد ومشيت حثيثًا إلى وسطه باحثة عن رقم المنزل المذكور في الرسالة. استعجبت من أن الشارع الشهير لم تكن به منازل، بل مبانٍ بدت لي كلها حكومية. عند العنوان المحدد توجهت إلى أحد الحراس الواقفين أمام بابه متسائلة عمَّا إذا كان هذا منزل السيد موريسون صاحب الرسالة التي أحملها. شعرت

باستهزائه بي وهو يخبرني بأنني اقف على باب مكتب الشئون الخارجية للحكومة البريطانية، وأن السيد المذكور في الخطاب الذي أحمله موظف بالمكان. استغربت أن يقرر موظف حكومي أن يخلط أمور بيته الخاصة في مكان عمله. ظننت الأمر غريبًا أن لا تكون السيدة موريسون جزءًا من المقابلة الخاصة بمربية أولادها.

حبيبي سأضطر إلى أن أنهي رسالتي هنا الآن لأن المدير أرسل في طلبي. أعدك يا هنري بأني سأقص عليك في رسالتي القادمة أغرب قصة لمقابلة عمل ممكن أن تسمعها.

إلى أن نلتقي قريبًا لك مني حب وأشواق لا نهاية لهما..

المخلصة لك

ليديا

3



القسطنطينية 24 سبتمبر 1869



هنري العزيز..

شعرت بأن السماء قد استجابت لصلواتي لما دخلت إلى غرفتي في القصر لأجد أوراقًا، وإلى جانبها حبرًا، على المنضدة الصغيرة المجاورة لسريري. يعجبني أن الحبر لونه أزرق وليس أسود كالمعتاد. الأزرق له رونق خاص على الورق وأشعر بأنه يليق أكثر بخطي.

لم يكن ليغمض لي جفن لو لم أستطع تسجيل ما أظنه المشهد الأروع في حياتي. لعلك عزيزي تشعر بأنفاسي اللاهثة تتسلل بين كلماتي المكتوبة وأنا أسجل الدهشة المسيطرة على كل حواسي منذ فجر اليوم. كم أتمنى لو أن بي موهبة فأستطيع أن أرسم لك تفاصيل الجلال الذي رأيته والضباب ينحسر رويدًا رويدًا أمام عينَي لينكشف لي بهاء أجمل مدن الأرض.

حين أخبرنا القبطان ليلة أمس أننا سنرسو صباحًا، أيقنت أنني سيجافيني النوم هذه الليلة. قبعت في قمرتي طامحة إلى أن أتغلب على ما بي من إثارة، وأنام ولو قليلًا، فذهبت كل محاولاتي سدى. قبل الشروق بقليل قررت أن أصعد إلى مقدمة السفينة آملة في أن تكون المدينة قد بدأت في الكشف عن معالمها. وجدت معظم الركاب متجمعين هم أيضًا. الكل كان متطلعًا إلى ما أسهبت كتب الترحال في وصفه باعتباره المشهد الأبهى على الإطلاق للإطلالة الأولى لمدينة على زوارها.

داعب وجهي وأنا واقفة هواء نضِر به شيء من صقيعٍ محبب. راعني

الضباب الكثيف الذي جعل الرؤية لأبعد من ياردات قليلة مستحيلة، لكن بسؤال القبطان طمأنني أن الضباب إلى انقشاع بعد قليل وأنه لن يحول دون المشهد المنتظر. لم يطل الوقت قبل أن تتحقق نبوءة قائد السفينة فارتفع الضباب، وكأن السحب السائرة فوق رؤوسنا قد امتصته وأذابت أشعة الشمس الجريئة ما تبقى منه. تعالت آهات الوقوف في انبهار والمدينة المهيبة تصوب نظرها إلينا. على مدار أكثر من ساعة بدأت ضفتا بحر مرمرة تنكشفان لنا كامرأة تتثاءب في غنجٍ بعد سُباتٍ عميق. أخذت الضفتان في الاقتراب من بعضهما حتى كادتا تلتقيان بعد بعاد ليستولي المضيق على كامل المشهد. تشعر وأنت ترى البوسفور أنك تُبحر في نهرٍ ولكنه ليس نهرًا عاديًا. يفصل في يُسر بين قارتي آسيا وأوربا دون حاجة لمثل مجهود المحيطات في التفريق بين القارات الأخرى.

استمرت السفينة تمخر وقد استحت أصواتها أن تنافس دقات قلبي المتناغمة مع تجوال عيني في لهفةٍ وأنا أستطلع عظمة مدينة بدأت في تسريب تفاصيلها. إلى يميني انحنت اليابسة عدة أميال في العمق الأوربي على هيئة قرن ثور. أدركت أنني أنظر إلى القرن الذهبي أو قرن الوفرة كما أطلق عليه القدامى من فرط خير قارات العالم القديم الثلاث الذي تدفق على بيزنطة من خلاله.

تماوجت مياه مرمرة من ناحية، والقرن الذهبي من الأخرى على الساحل الأوربي، في حين بدأت تلال سبعة تعتلي الجانب الآسيوي. ألصقت نظارتي المعظمة بوجهي أمعن النظر في كل تفصيلة. من بعيد بدأت نقطة بيضاء في أقصى الأفق تتبدى. كلما اقتربنا تسيدت التلال المنظر، تزينها مبانيها كالدرر المتألقة في عقد أحسن صنعه. كشفت ما كانت نقطة بيضاء عن مئذنة تشق عنان السماء قبل أن تنضم إليها مجموعة لا متناهية من القباب والمآذن تلف المدينة أو بالأحرى تحتضنها في إبداع. وحين شارفنا على الرسو لم يتبق لاكتمال دهشتنا سوى شموخ جديد جعلنا جميعًا فاغرين الأفواه. فمن وسط مشهد لا

قدرة لديّ على وصفه بما يحق له من روعة، أطل علينا ظل مبنى فخم، مهيب، تملكت عظمته حواسنا في جلالٍ لتؤكد أننا على مشارف أجمل بقاع الأرض. تلك كانت اللحظة التي قررت فيها آية صوفيا أن تعلننا، أردنا أم أبينا، أننا سنقع في غرام مدينة هي جوهرة تاجها.

هنري، أستطيع أن أستمر دون توقف في وصف مشهد وصولنا الذي لم أظن أنه سيترك مثل هذا الأثر الهائل في نفسي. لكنني سأكتفي بهذا القدر حتى أستطيع أن أروي لك مزيدًا من المدهشات التي امتلأ بها يومي. أخاف إن أسهبت أن أملأ الوريقات القليلة التي تصادف وجودها في غرفتي، وما زال لديّ الكثير الذي أحتاج إلى أن أسجله.

كنا قد رسونا في الميناء قبل الظهيرة بقليل، وحين بدأنا في التجمع للنزول من السفينة أخبرنا البحارة بعدم استطاعتنا ذلك. استغربت ما يحدث خاصة أن التفسير الوحيد الذي ظلوا يخطروننا به هو أن اليوم يوم الجمعة. مع تعالي أصواتنا شرح لنا مساعد القبطان أن الجمعة هو يوم الصلاة الكبرى للمحمديين، وأن علينا الانتظار لحين انتهائهم منها.

في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرًا، أنهى تذمرنا تعالي هدير المدافع من ناحية القرن الذهبي معلنة تحرك موكب السلطان من قصره. من الناحية الأخرى وعلى منوال شديد الاتساق بدأت المدفعيات من كل صوب ترد التحية في توقيتٍ متوالٍ محسوب. امتلأت أذناي بما لم أشعر به ضجيجًا بقدر ما اشتبه بداخلي بدقات طبول موكب ملكي من كتب الأساطير التي شببت على قراءتها. توجهت بنظري ناحية الماء لأجد المركب السلطاني يقترب بسرعة ناحية اليابسة. مركب طويل مجلل بالذهب والحرير القرمزي تدفعه ثلاثة عشر زوجًا من المجاديف، وفي قطارها ستة صنادل أخرى لا تقل زينتها روعة. رأيت السلطان مضطجعًا داخل تعريشة مذهبة قبل أن يهبط إلى الرصيف، حيث انتظره حصان به كثير من الإباء، سرجه من المخمل المطعم بقطع ذهبية، ولجامه مرصع بالجواهر. شعرت حينئذٍ يا حبيبي بأنني في عالمٍ سحري استقبلني فيه مليكه قبل أن يختفي على جواده ويتركني

مشدوهة من فرط ما أحاط بي من خيال.

لم يجد الرجلان اللذان أرسلا لاستقبالي صعوبة في العثور عليَّ بعد أن ظلا يرددان اسمي دون كلل أمام سلم النزول من السفينة. حملا حقائبي وتبعتهما إلى مركبة صغيرة يشدها حصان استعجبت من صغر حجمه مقارنة بأحجام جياد الوطن. أزالت مشاهد الشوارع الكثير من السحر الذي تملكني ونحن نرسو في الميناء. شوارع طويلة تتلوى من اتجاهٍ إلى آخر وكأنها متاهة لا مخرج منها. بيوت خشبية لا يفرق بينها سوى باب ملون كل آن وآخر. وما بين البيوت تفاجئنا مساحات من المقابر وكأن أمواتهم لا يريدون أن يبتعدوا عمَّن خلفوهم من أحياء. المشاة يموجون بالشوارع في حالةٍ من الفوضى توحي للناظر إليهم بأنهم بلا هدف محدد، وفي وسط كل ذلك هالني الكم المبالغ فيه من الكلاب التي استولت على المشهد، أجسادها هزيلة ولكن بعيونها ونباحها المستمر شراسة بادية.

لم يمضِ وقت طويل إلا وأصبحت العربة تمرق بنا وسط مروج انفرجت عنها الشوارع الضيقة. أصبح بالطريق صعود متدرج وعلى جانبيه ترامت بيوت فخمة. كلما صعدنا كبرت المباني حتى تحولت كلها إلى قصور كل منها ينافس سابقه في الجمال.

توقفنا أمام قصر مهيب، بابه ضخم، عريض وعالٍ بصورةٍ لافتة. حين دخلت إلى بهوه لم أستطع أن أوقف عيني عن التجوال ما بين روعة أرضياته المرمرية وتجاليد حوائطه الخشبية التي زينتها لوحات ضخمة ألوانها منعشة. وفي الأسقف تزاوجت القباب المذهبة مع معشقات الزجاج الملون. أظن أن ابتسامة ساخرة ارتسمت على وجهي وأنا أرى فندق الغرب الملكي العظيم يتقزَّم في وجداني أمام العظمة المتبدية أمامي.

قطع انبهاري دعوة الآنسة ماكنلي لي بالانضمام إليها لنحتسي الشاي في غرفتها. صعدنا دور القصر الثاني وسرت خلفها في دهاليز طويلة

تراصت على جانبيها أبواب مغلقة. حين وصلنا إلى حجرتها دعتني للجلوس بلهجةٍ آمرة بعض الشيء. وضحت لي أسكتلنديتها من لكنتها وأكد ذلك حمرة شعرها. بالكاد منعت نفسي من الضحك وأنا أرى الشعيرات الصغيرة التي غزاها الشيب وقد تجمعت حول شفتيها مفشيه ما حاولت إخفاءه من سنها فيما تبع من كلامها.

بنبرةٍ متعالية، بدأت الآنسة ماكنلي كلامها بإخطاري بأنني لست في بيت باشا عادي، وأنني لا يجب أن يختلط عليَّ الأمر؛ إذ إن القصر الذي سأخدم فيه أقرب لكونه بلاطًا ملكيًا. أخمدت دهشتي وهي تُسهب شارحة أن الأمير مصطفى بهجت فاضل كان ولي عهد مصر حتى عامين مضيا، وأنه برغم صدور فرمان غيَّر من وضعه إلا أنه صاحب الحق الشرعي في تلك الولاية. أكدت لي أن الفرمان لم يصدر إلا بسبب كم الرشاوى التي دفعها أخوه إسماعيل لبلاط السلطان حتى يصبح ابنه وليًا للعهد بدلًا من الأمير مصطفى. ثم قطبت حاجبيها وبصرامةٍ شديدةٍ حذرتني قائلة: إن الكلام في السياسة مع الأطفال ممنوع. انتقلت سريعًا بكلامها إلى عملي والمنتظر مني فأخبرتني بأن للأمير عشرة أولاد وست بناتٍ، وأنها هي ومعها مساعدتان، إنجليزية وفرنسية، هن مربياتهن ومعلماتهن، ونظرًا لتزايد حجم العمل فقد قاموا بتوظيفي. في صلفٍ لم أستسغه أشارت إلى أنه نظرًا لقلة خبرتي ستوكل لي فقط مهمة مرافقة بنت الأمير الكبرى. علّلت ذلك بأن معظم تعليم الأميرة قد انتهى ولذلك فلن تحتاج إلى ذات الخبرة الكبيرة. أخبرتني بأن الأميرة نازلي طليقة في اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وأن ما عليَّ سوى التركيز معها على استكمال دراستها للتاريخ الأوربي وجغرافيا العالم. شددت تحذيرها أنها ستراقبني عن كثبٍ وأنه بناء على أدائي مع نازلي ستقرر إن كنت سأستحق الاستمرار في وظيفتي أم ستصدر الأوامر برجوعي من حيث أتيت. كررت مرارًا أني سأكون تحت عينيها وتحت التجربة.

لم تتِح لي الأسكتلندية العجوز فرصة الحديث أو الرد على كلامها الذي

صدر في صورة أوامر عسكرية صارمة ومتتالية. وتناست أيضًا يا هنري كوب الشاي الذي دعتني له، إذ أنهت الجلسة على حين غرة برنها لجرس، دخلت على إثره خادمة أمرتها بمرافقتي إلى غرفتي.

ولأن اليوم والمكان أبيا إلا أن يمتلئا عن آخرهما بالغرائبيات، فقد تعرفت قبل أن أدخل غرفتي بجارتي في الغرفة المجاورة: إليزابيث چيراكاو- باومان، رسامة دنماركية زائرة وضيفة مقيمة في القصر. تعب اليوم كان قد حلّ بي، فأسكت فضولي ولم أسألها عشرات الأسئلة التي تدور في ذهني الآن: لماذا أنتِ هنا؟ وكيف أتيتِ من أقصى الشمال؟ ولمَ يستضيفكِ أهل الشرق الذين يصفونهم بالمنغلقين في بيوتهم؟

عزيزي هنري.. سأتوقف هنا لا لإرهاق، ولكن لأن الحبر الأزرق قد نفد. لن أتأخر في الكتابة، بل سأداوم عليها؛ لأني لا أريد أن تفوتك تفصيلة ممّا أخبره في عالمي الجديد.



المخلصة لك

ليديا



4

القسطنطينية 3 ديسمبر 1869



هنري العزيز..

أرى أنني أدين لك باعتذارٍ شديدٍ عمَّا أظن أن خطابَي السابقين قد سببوه لك من بلبلةٍ لو قرأتهما. لا بد وأني بدوت لك غير متزنة، أقفز من مدينةٍ إلى أخرى دون مقدمات ولا مسببات، وأسهب في وصف المدينة التي حملت إليها الرحال من غير أن أشرح لك سبب ترحالي من الأساس. سامحني هنري ولكن تصور نفسك مكاني: فتاة في الخامسة والعشرين من عمرها تضطر إلى أن تهرب من برمنجهام التي لم تبارحها طوال حياتها، فتجد نفسها في غضون أشهر قليلة وقد انتقلت بين أهم مدينتين على وجه الأرض. لا بد وأنني عذبتك وأنا أذكر السيد موريسون دون أن أنهي سرد ما دار بيننا، ولم أروِ فضولك وأنا أقفز بين لقائي المكثف بالآنسة ماكنلي والعابر بالرسامة الدنماركية. لكنك ستتفهم دون شك أن قلمي لا يتبع ترتيبًا وأنا أسجل لك حبيبي اللحظات المثيرة التي أعيشها في الأشهر القليلة الماضية. بل لعلك تسمع آهات تعجبي ولهاثي في حروفي وأنا مشدوهة من فرط ما اختبرته هذه الأيام. سأحاول أن أبدأ في توضيح ما فاتك مؤجلة مؤقتًا رغبتي العارمة في مشاركتك الشغف الذي أصبح يتملكني بقربي من الأميرة الأخاذة نازلي.

أستعيد الآن، وأنا أكتب لك، دخولي مكتب الشئون الخارجية في شارع الملك شارلز في لندن، وانتظاري أمام باب مكتب السيد موريسون.
طرقات المبنى كلها كانت مجلدة بالأخشاب التي اختلط عبق ما تبقى من رائحة دهانها مع دكانة الألوان وقلة الضوء ليلقوا شيئًا من الرهبة

بداخلي. لم أدرِ لمَ أصبحت بي خشية من اللقاء الذي كنت على وشك بدئه. تملكني إحساس برسمية وأهمية المكان وضآلتي وسط الهيبة التي اكتست بها دهاليزه. غلبني خوف ممَّا كنت قد انتويته من كذبٍ فيما يخص خبراتي السابقة وأسباب تركي لعملي السابق ومغادرتي برمنجهام.

وأنا أتذكر ذلك اليوم يساورني الشك في أن السيد موريسون عمد إلى أن يطيل انتظاري للقائه. أكاد أقطع بأنه قصد بالضبط أن تغزوني المهابة التي ملأتني. حين قرر أن تبدأ المقابلة انتبهت إلى صرير باب مكتبه وهو يُفتح ببطءٍ متعمدٍ لأسمعه ينادي: «ليديا ستون».

مناداته لي باسمي دون أن يصحبه لقب آنسة زاد من روعي. أجلسني أمامه ثم مد يده إليَّ دون أن ينبس حرفًا ففهمت مراده وأسرعت أناوله ما كنت كتبته ملخصًا لخبراتي. أطال النظر إلى الورقتين اليتيمتين بما لم يستحقه محتواهما. بعد فترةٍ ليست بالقصيرة رفع رأسه وصوب نحوي نظرة نافذة وسألني: ماذا تعرفين عن الإمبراطورية العثمانية؟

بوغتُّ بالسؤال وأتبعت ذلك بكثير من التهتهة مكررة ذكر القسطنطينية والمعلومات القليلة التي كنت أعرفها عنها. أحسست بأني أكاد أتلاشى وأنا جالسة أمامه من فرط خجلي من قصور قدرتي على الرد على سؤاله، وقد ظننتني دارسة متفحصة للتاريخ. راح ذهني لقصص ألف ليلة وليلة وما ارتسم بسببها في وجداني عن هذا العالم. لم يتركني السيد موريسون طويلًا قبل أن يقاطعني ويزيل عني ما أصبحت فيه من حرج وضآلة وعجز عن الإتيان برد مناسب لسؤاله:

- من أجل أن تسود إمبراطوريتنا لا بد وأن نعرف عن قرب ما يدور في البلاد المجاورة لنا. لا نراقب فقط من نظنهم أعداءنا، ولكننا ندرس ونجمع معلومات عن الحلفاء والأصدقاء قبل الأعداء. أو على الأقل بنفس القدر من الاهتمام والدقة.

حينذاك يا هنري أصبحت أسيرة للحيرة: ما لي وما للإمبراطوريات

والسياسة؟ وكيف أتى بي إعلان عن رغبتي في وظيفة مربية في التايمز إلى هنا؟ لماذا لم يهتم الرجل الجالس أمامي باستطلاع خبراتي أو بسؤالي عن وظيفتي السابقة ولمَ تركتها أو تركتني؟

تسارعت هذه الأسئلة في ذهني وتخبطت في جنباته فاتسعت حدقتا عينيَ وأنا أشخص في وجهه. لم يُطل حيرتي وعذابي إذ سارع بكشف مراده من لقائي بعرضه عليَّ وظيفة في حكومة الملكة ڤيكتوريا. نعم يا حبيبي أنا ليديا أصبحت موظفة، وإن كانت وظيفة سرية، في حكومة جلالتها!

لعلك ستسخر من فكرة أن حكومة الملكة ڤيكتوريا تستخدم مربيات لكني سأسارع بأن أشرح لك أنهم لم يبغوا مربية عادية. أفاض السيد موريسون في المعلومات عن كنية الأمير مصطفى بهجت فاضل ولي عهد مصر السابق، وكيف اختلف مع أخيه الخديوِ إسماعيل حتى اضطره الأخير إلى المغادرة إلى القسطنطينية بعد أن قام بشراء كل أملاكه وميراثه في مصر. ولي العهد السابق كما فهمت من الشخصيات المؤثرة، ومن أصحاب المواقف التي تهتم بها بريطانيا. تصور يا هنري شجاعته وهو يكتب إلى سلطان العثمانيين خطابًا طويلًا ينصحه فيه بالرشد وبتحسين سياساته مع شعبه دون أن يخاف أو يضطرب. رسالة لخص لي موريسون أنها تحاكي الفكر الأورُبي وتدعو إلى حريات ينادي بها مفكرو البلاد الأكثر تقدمًا.

حين عرفت حكومتنا أن الأمير قد بعث في طلب مربية لأبنائه، وجدت في ذلك فرصة لزرع مَن تستطيع أن تؤدي الوظيفة المطلوبة بالإضافة إلى مهمة أخرى. أرادوا أن يستفيدوا بقربي من مثل تلك الشخصية التي يظنونها ستلعب دورًا في تسيير أمور إمبراطورية الشرق العظمى. طُلب مني أن أقدم تقارير، كلما سنحت لي الفرصة، عمَّا يدور في قصر الأمير من أمور وأفكار تساعد حكومتنا على تقييم وتقدير ما يجول في أروقة القسطنطينية. أسهب مديري الجديد في تأكيد أنه لا يطلب مني تجسسًا بقدر ما يطلب مني إعلام لندن بما يصل إلى مسامعي من أمور

خفية تساعد متخذي القرار على مهامهم.

«سفركِ إلى هناك سيساعد على نسيان ما حدث في برمنجهام!»

حين نطق هذه الجملة أصابني الذهول والوجل. كيف له أن يعرف قصتي في برمنجهام؟ وهل حملت هذه العبارة نوعًا من التهديد لي بكشف ما اجتهدت في ستره؟

حين تفكرت لبرهة وجدت وجاهة فيما اقترح: ألم أسعَ للهروب؟ فما المانع من زيادة مسافة البعد عن المكان الذي فررت منه؟ ثم إن السفر إلى ذلك العالم المدهش، كما استقر في وجداني، بدا اقتراحًا رائعًا. وقعت في حب فكرة أن أكون في كنف أمير شرقي وعائلته وفي الوقت ذاته في خدمة جلالة الملكة المعظمة. أسرتني روح المغامرة حتى نسيت تمامًا ما أصابني من ذعر معرفته عني بأكثر ممَّا يبوح.

قضيت الشهرين التاليين يا حبيبي أزور مكتب الشئون الخارجية مرتين أسبوعيًا لأتدرب على مهام مغامرتي الجديدة. قرأت الكثير عن العثمانيين وإمبراطوريتهم، ولقنوني تفاصيل كثيرة عن حياتهم ومجتمعهم، وبالذات ما يخص صفوتهم. وفي الأسبوعين الأخيرين قبل أن أغادر إلى القسطنطينية اهتموا بتعريفي طرق التواصل السرية فيما يخص التقارير المطلوبة مني. وحين انتهت فترة التدريب تلك، ودَّعني السيد موريسون بابتسامةٍ عريضةٍ وهو يعطيني تذكرة سفري بالباخرة وخطاب توصية فخم أذهلني أن ذيلته الأميرة ألكسندرا، أميرة ويلز، بتوقيعها الملكي.

هكذا يا عزيزي وصلت إلى هنا وأصبحت جزءًا من بلاط قصر الأمير مصطفى بهجت فاضل. مكثت يومين وحدي في غرفتي منذ أرسلتني إليها الآنسة ماكنلي حتى ظننت أنهم نسوا وجودي. لم يقطع وحدتي سوى تلك النقرات الخفيفة على بابي وقت الوجبات فأفتحه لأجد صينية عامرة بأنواع طعام شهية غير معتادة. في اليوم الثالث قررت أن أغامر بالخروج من محبسي والبحث عن الأسكتلندية العجوز. سرت

في طرقة طويلة نوعًا انتهت بباب زجاجي تسللت منه أشعة الشمس ففتحته لأجد نفسي في فناء مربع كبير. استمر الإوز الجميل الموجود بالمكان يمرح وسط الخضرة التي زينته دون أن ينزعج لوجودي. أظنني لمحت أيضًا غزالًا واقفًا ينظر نحوي باستغراب في آخر الحديقة الغناء التي أحاطتها أشجار البرتقال وفاحت منها روائح الياسمين والورد التي تناسقت على جنباتها. أتذكر جيدًا كيف أسرتني روعة تلك الحديقة فتسمَّرت مكاني أمتع حواسي كلها بما حوت. بعد قليل عبرت إلى ناحيتها الأخرى لما لاحظت بابًا زجاجيًا آخر مواربًا. دلفت إلى الداخل لأجد نفسي في غرفة شديدة الاتساع أرضيتها المرمرية تلمع لمعان المرآة، وقد خلت من الأثاث ما عدا تلك الأريكة مخملية اللون التي توسطت المكان. أخذتني ألوان الستائر الزاهية التي غلفت حوائط الغرفة في تناسق بديع مع دهان السقف اللامع. لاحظت وجود لوحة على حاملها على بعد خطوتين أو ثلاث من الأريكة فتوجهت نحوها.

لم يترك رسام اللوحة تفصيلة من احتفالية ألوان المكان إلا ونقلها بحرفية. أضاف الفنان فقط إلى المشهد المحيط بي جارية باللباس التقليدي مستلقية على الأريكة. لاحظت نحافتها البادية وشدتني نظرتها المملوءة ثقة. لم تكن رائعة الجمال كما تعودت أن أرى في اللوحات ولكن وجهها بلا شك كان جذابًا. عيناها فيهما بريق، وأنفها مستقيم، وشفتاها رفيعتان متسقتان مع ضآلة جسدها المضطجع على الأريكة.

«ما رأيك؟»

فوجئت بصوت وسؤال إليزابيث من خلفي، ولم أكن قد لاحظت دخولها إلى الغرفة. رددت: «لوحة رائعة.. نقلتِ كل التفاصيل.. حلوة الجارية». قهقهت الفنانة بصوتٍ عالٍ لتخبرني بأن مَن في اللوحة ليست جارية، بل أميرة!

وهكذا قدمتني إليزابيث چيراكاو- باومان إلى الأميرة نازلي فاضل!

أجابت عن تساؤلاتي لما أخبرتني أن الأميرة وافقت على ارتداء ثياب الجواري نزولًا على رغبة الرسامة. أكدت أن ملبس الأميرة المعتاد من أفخم الأزياء الباريسية، وربما تسبق في ذلك أميرات الممالك الأوربية. أفاضت في مدح نازلي وروح المغامرة التي تميزها، وتمردها، في حدود، على قيود الشرقيين.

وجدت أريحية في حديثي مع إليزابيث، فزال عني حرج سؤالها عمّا حيرني منذ لقائها. أخبرتني بأنها تركت أولادها السبعة في الدنمارك مع حماتها وارتحلت إلى هنا ليس بحثًا عن المغامرة، ولكن من أجل توفير المال لأسرتها. في مخيلتها أن الغربيين يجذبهم الشرق وتبهرهم الأجواء السحرية التي يظنون مدنًا مثل القسطنطينية تحويها. شرحت لي أنها لذلك رجت الأميرة أن توافق على رسمها بزي الجواري وإلا ما وجدت قيمة للوحاتها حين تعود وتعرضها للبيع. طال حديثنا وهي تنصحني عمّا يجب أن أنتظره، وما ينتظر مني في التعامل مع أهل القصر. قبل أن نفترق سألتها كيف استطاعت أن تجد سبيلها إلى داخل بيت أمير عثماني ففغرت فاها وهي تخبرني بأنها حملت خطاب توصية من الأميرة ألكسندرا زوجة ولي عهدنا! للحظةِ كدت أعترف لها بأني في مهمة مماثلة لمهمتها، ولكني تذكرت ما تدربت عليه من وجوب كتمان سري.

حبيبي هنري.. أظن أن نازلي قد بعثت في طلبي، سأتركك الآن على وعد برسالة جديدة في أقرب وقت.

المخلصة لك

ليديا

****

5

القسطنطينية 8 فبراير 1870

هنري العزيز..

هأنا أعود من جديد فأجلس إلى مكتبي أحاول بعد انقطاع الكتابة إليك. طوال الفترة الماضية وبي تردد كبير في مواصلة خط رسائلي إليك. أرهقتني أسئلة عدة كلما عزمت على أن أكتب لك: ما الغرض من تلك الرسائل وأنا أعلم أنها في الأغلب لن تصلك، وأنك لن تقرأها يومًا؟ وإن كنت سأواصل الكتابة، فهل أكتب لك يوميًا أم شهريًا، أو كل عام؟ هل الأفضل أن أراسلك وأحافظ على حلم مستحيل أن يصلني ردٌّ لما أسطر ولو مرة واحدة؟ هل أستحق بعد فعلتي أن أطمع في تواصل معك وغفران أو سماح؟ لا أخفيك أنني أشعر براحة رهيبة وأنا أكتب إليك، ولكني حين راجعت خطاباتي السابقة غلبني الحزن وملأتني غصة بما اضطررت له من مفارقتي لك. أصبر نفسي بقول إن الأمر لم يكن بيدي، ثم أعود ألومها بأنه كان بإمكاني تدبُر الأحوال بطريقةٍ أفضل لكلينا.

سأستمر في الكتابة لعلها تداوي ما بي من ألم وجرح، وسأظل حالمة بيومٍ تقرأ فيه ما سجلت من مجريات حياتي ربما يقلل ذلك مما حرمتك منه. لن أكتب لك لأنه واجب ولكن سأكتب راغبة. لن أكتب على موعد، ولكن سأكتب حين ينبهني ناقوس قلبي بأن هناك ما أريد أن أشركك به. لا أدري لمَ سطرت ما سطرت الآن، ولكن بي تشتت وتردد لا أستطيع الإفصاح به لأحدٍ سواك، حتى لو أن صوتي راح في الفضاء هباء. أشعر براحة غريبة الآن وقد خططت كلماتي السابقة وكأنني أحس بك تهدئ خاطري وتربت بيد خفية كتفي فيملأني الأمان. كفى إلى هنا حديثًا

عاطفيًا، ولننتقل إلى ما أشهده من أحداث متوالية في قصر قرر أن يضمني ويجعلني جزءًا من يومياته.

بالأمس بعثت رسالة جديدة إلى السيد موريسون. لم أعنونها إليه كالتعليمات، بل إلى اسم سيدة أعطوه لي وعنوان في وسط لندن. أظن أنها الرسالة الخامسة أو السادسة التي أبعثها منذ وصلت إلى القسطنطينية. لا أخفيك سرًا أني كتبتها وأعدت كتابتها عدة مرات. كالعادة أخذ التشفير مني وقتًا طويلًا حتى تبدو كرسالة طبيعية بين صديقتين. في النهاية أظن أني أجدت الكتابة وأنهم سيجدون معلومات قيمة فيما أرسلت. المضحك أنني لا أدري إن كان من المفترض أن ترد «صديقتي» على رسائلي. نسيت أن أسألهم هذا السؤال قبل انتهاء تدريبي. لم يصلني حتى الآن أي رد منهم وإن لم يمنعني هذا عن الاستمرار في المهمة التي أوكلوها إليّ. سيكون مثيرًا أن تصلني منهم رسالة مشفرة وأن أقضي وقتًا في فك رموزها والرد على طلباتهم الواردة بها. لم أنسَ أن أضمن خطابي، كما اعتدت في كل خطاباتي لهم، تذكيرهم بوعدهم لي بالبحث عنك وإخطاري بمكانك. أظن أن حكومة جلالة الملكة فيكتوريا لن تحنث بوعدها. بالذات أن هذا هو طلبي الأوحد من ممثليها، في مقابل ولائي التام وإقدامي على حُسن تنفيذ مهمتي التي أرسلوني من أجلها.

هنري، لا بد أن أصارحك: لقد وقعت في الغرام! لا تُفاجأ، فهو غرام من نوعٍ غريب. لقد أسرتني أميرة بسحرها وخلبت وجداني بسموها. كلما نظرت إليها ازداد حبي لنازلي، تلك الفتاة التي يبدو أن مصيري قد ارتبط بها. انبهاري بها وأنا في حضرتها، يردد في أذني أبيات كريستينا روسيتي وهي تصف أميرة ملكية في قصيدتها المشهورة:

أميرة، أنا، من نسل ملك، مدججة بالجواهر، منعمة بالذهب

أفضّل لو أني فلاحة طفلتها على ثديها

أو أني ألمع كشمسٍ أرجوانيةٍ في غربها

اثنان واثنان من حُرّاسي خلفي، ومثلهما من أمامي

اثنان واثنان بجوار كل يد، أبدًا وأبدًا يحرسانني

حمامة مسكينة أنا، هديلها مكتوم

نسر من تحليقه محروم

بروائح نوافيري تفوح حدائقي

بأريج أخشابٍ وتوابلَ وأزهارٍ موردة

ثمين هذا خارج المواسم مع دوران الفصول

لو أن الشاعرة قابلت نازلي فألهمتها هذه الأبيات لما استزادت أو انتقصت منها حرفًا. كانت ستجد أمامها مَن تخيلت لما قرضت أشعارها. نازلي يا عزيزي هي كل ذلك وأكثر. ليست الأجمل ولكن بوجهها النحيف وعينيها الثاقبتين جاذبية تُذيب الناظر. دائمًا متألقة ومتأججة ومغلفة بلمعان ذكاء وحضور غير مألوف ولا معتاد. عقليتها سابقة لعمرها، تُحير مَن يسمع الحكمة التي تفيض في كلامها، ولا تتسق مع عمر الزهور التي ما زالت تنعم بسنونه. أبيات روسيتي تصفها وكأنها تقف أمامها. نازلي نسل الملوك التي تتوق لأن تكون من العوام ظانة أن ذلك سبيلها للانطلاق. يحيط بها خدم وحشم، أنا منهم، في كل خطوة تخطوها حراس لها ممّا لا يجب لأميرةٍ أن تتعرض له. لها هالة وبها بريق يلفها في كل خطوة، ويفوح المكان الذي تحل فيه بوجودها. بداخلها فعلًا تلك الحمامة الرقيقة بقلب نسر يتوق للتحليق عبر أسوار قصر أبيه. الغريب يا عزيزي هو ذلك القرب بين نازلي وأبيها. أحيانًا أشعر أنه يعاملها كالولد الذي يصبو إلى أن يخلفه. يشركها في فكره وتطول بينهما جلسات المناقشة التي يصبر فيها على تساؤلاتها ويطعمها من فكره ويغذيها بثقافته الواسعة. لكنه أيضًا نقل لها مرارة ما كان من نفيه عن الوطن الذي ترعرع فيه. ظننت حين وصلت أن تلك

المرارة نوع من الطمع أو الجشع لكن حنيني إلى إنجلترا، برغم جرحي، أفهمني حزن الأمير الدفين لبعده عن وطنه.

مصر كانت سببًا لكثير من التوتر والعصبية التي لفّت القصر في الشهور الماضية. البداية كانت في نهاية نوفمبر الماضي لما بدأت الأخبار تتواتر من هناك وقد أصبح البلد محط أنظار عالم تكفلت بربط جنوبه بشماله حين حفر أهلها قناة ربطت المحيطات والبحور ببعضها. ثار الأمير وغضب لمَّا وجد نفسه غير مدعوٍّ في الافتتاح المهيب لما وضع لبناته الأولى مع عمِّه سعيد باشا، ومن بعده أخيه الخديوِ إسماعيل حين كان وزيرًا لماليته.

تبارت الصحف في وصف الحفل المهيب لافتتاح القناة. كلما زاد مدح ذلك الحفل اشتد غيظ الأمير من عدم دعوته الذي رأى في حضوره حقًّا له وهو صاحب الحق المسلوب في ولاية عهد مصر. تبارى الصحفيون في وصف الحفل والحضور. تخيل أن عدد المدعوين من ذوي الحيثيات الرفيعة بلغ حوالي ستة آلاف مدعو. أظن أن هذا العدد مماثل لتعداد برمنجهام. ومن الجنون أن تم استدعاء خمسمائة طباخ من مرسيليا وجنوة وتريستا. أقاموا ثلاث منصات خضراء مكسوة بالحرير خُصصت الكبرى للملوك والأمراء، والثانية لرجال الدين الإسلامي، وخُصصت الثالثة لرجال الدين المسيحي. وصفت الصحف كيف جلس في المنصة الكبرى الخديوِ إسماعيل، وفرديناند ديلسبس، والإمبراطورة أوجيني إمبراطورة فرنسا، وفرنسوا جوزيف إمبراطور النمسا، وملك المجر، وولي عهد بروسيا، وشقيق ملك هولندا، وسفيرا إنجلترا وروسيا بالقسطنطينية، والأمراء المصريون.

قرأت في جريدة إنجليزية وجدتها لدى الآنسة ماكنلي أن الموائد التي تحتوي على شتى أنواع الأطعمة والمشروبات أقيمت لعدة أيام متتالية. وقدم الخديوِ على أضواء الشموع، آلافًا من أصناف الطعام والخمور المعتقة. وصف التقرير الألعاب النارية، التي تم استيرادها خصيصًا لهذا الحفل، وكيف تلألأت سماء بورسعيد بالأنوار والأضواء

مع ما ساد شوارعها من أنغام الموسيقى. أمعنوا في وصف رقصات أوجيني الفاتنة مع الخديوِ. ونشروا برقية للإمبراطورة إلى زوجها نابليون الثالث تخبره فيها: «أن الاحتفال كان فخمًا، وأنها لم ترَ مثله في حياتها، وما زاد الأمر أبهة، اصطفاف الجيش والأسطول المصري في ميناء بورسعيد، بالإضافة لفيالقه على ضفاف القناة».

صب مصطفى باشا جام غضبه على أخيه ومن بعده ديلسبس. وصف الفرنسي بالخائن وبأنه كان عليه أن يصر على دعوته. أصر في كثير من حديثه أن فرديناند ديلسبس لم يصُن العهد. في الوقت ذاته أشاد بوالده ماثيو ديلسبس الذي فيما يبدو لعب دورًا مهمًا في تمكين الجد محمد علي من اعتلاء عرش مصر. لكنه مع هذا كرر وصف الابن فرديناند بالوضاعة وبأنه مهتم فقط بمصالحه الشخصية ومستغل لما يُكنه أحفاد محمد علي لأبيه من تقدير لجميله.

استغربت يا هنري كيف تُدار شئون البلاد وكيف تُساس بقدر كبير من السذاجة والمجاملة. مشروع ضخم كهذا يهبه سعيد باشا للابن تقديرًا منه للأب الذي مكّن الجد من الحكم؟ ومن أجل استكمال المجاملة يُسخر مئات الألوف من الفلاحين من أجل تحقيق حلم المغامر الفرنسي دون نظر لأعداد مَن ماتوا ولا للأسر التي تشردت جراء سحب عائليها في أعمال الحفر. تعجبت أن يُحتفل بهذا البذخ وقد اختلطت مياه قناة السويس بدماء مَن حفروها. ولكن هذا حال العالم على ما أظن. يحلم الكبار فيستعبدون الصغار لتحقيق أحلامهم ولا يرهقهم أنين مَن يزهقون أثناء التنفيذ. تدمع عيناي وأنا أتخيل مَن فقدت الزوج والابن من أجل مشروع لن تصلها فائدته يومًا. كل هذا من أجل أن يتباهى حاكم يصبو إلى عظمة على حساب رعيته المساكين. لا أدري إن كنت تأثرت بغضبة مَن أعيش في كنفهم فكرهت إسماعيل ورأيت في حفر القناة ضيمًا لا مثيل له دون جدوى حقيقية للبلد الذي يحوي مجراها.

لعلي أزعجتك وأنا أسهب في كلامي في أمور السياسة والحكم. ولعلك تستغرب أني دائمة ذكر نازلي وأبيها دون أمها. سأعزو ذلك إلى تقلص

دورها إلى حد العدم. فاجأني وضع ديالزاد هانم والدة نازلي وزوجات أبيها الأخريات وجدتها سيدة مستكينة تستمتع بما توفر لها من رغد العيش دون أن تحاول أن تغير من أوضاعها. تقبل أنها زوجة من ضمن زوجات وتتجاهل نهم رجلها بالمحظيات اللوائي يملأن طرقات قصرها. تتبارى مع الزوجات الأخريات في إعلاء وتقديم أبنائها وبناتها لدى الزوج. في سبيل ذلك لا تمانع ولا تتوانى عن كيد المكائد ونصب الأكمنة بين أنصاف الأشقاء. وراء سكونها وطلتها المبتسمة يوجد خبث دفين وعقل مستمر في التخطيط من أجل السيطرة على رجل أقصى آمالها أن يزيد ميراث وعزوة أبنائه منها. أعادت سلبية الهانم إلى ذاكرتي ما كانت عليه الليدي هارقي ربة البيت الذي عشت فيه ببرمنجهام. لكن الأخيرة كانت قليلة الحيلة عن حق لا مكرًا. عجزت عن الوقوف إلى جانب ابنتها في معضلتها وامتنعت عن التصدي للظلم الذي وقع على الفتاة. ظلم بيّن أملته عنجهية الأرستقراطية التي داست على سعادة إنسانة أرادت أن تختار. حين أتذكر القصة أغضب من سذاجتي حينها التي دفعت بي إلى غرام مَن أسرني بفكره. ظننت أنه أرقى وأسمى من الماديات التي سيطرت على كل توجهات أبيه. مواقفه وآراؤه آنذاك أقنعتني بأن أي فروق بيننا ذائبة وأنه لن يرضى لي بما لا يتفق مع مُثله المعلنة. لكني كنت صغيرة حينها لا أدرك أن المكاييل تختلف وأن الرجولة لدى البعض مطاطة وواسعة تتغير قوانينها مع تنوع المراد.

سأتوقف هنا يا هنري وقد غلبني الدمع وأنا أستدعي تفاصيل مأساتي. أفضل أن لا تجد في كلماتي حزنًا وأن تظل تستشعر فرحي بالتواصل معك.

أحبك..

المخلصة لك

ليديا



6

مفكرة سيدني بويد

3فبراير1914

مجموعة من الخطابات ضمتهم الحافظة الجلدية التي تركتها لي ليديا ستون. وجدتهم مرتبين بترتيب تواريخ كتابتهم. أول ما أثار فضولي كانت التواريخ، إذ لم أجد رابطًا بينهم حيث تباينت الفترات الزمنية بين الخطاب والآخر. لفت نظري أن في مرات تفصل شهور بين الرسالة والأخرى، وأحيانًا بدا أن ليديا تناست أن تكتب مدذا طالت لسنين. الرسائل كلها معنونة وموجهة لشخصٍ واحد يدعى هنري، يبدو من شغفها به أنه عشيق، وقد فرقت بينهم الأيام. هو نفسه الذي لم يكن لها طلب في مقابل خدماتها السرية لبريطانيا، سوى أن يجدوه لها.

فضّلت أن أقرأ الرسائل على ترتيبها فقاومت بشدة فضول أن أقفز إلى الخطابات الأحدث لأكتشف قصتها أو أتبين أحداثًا سردت أجزاءً منها دون أن تُكملها. ليلة أمس انتهيت من عدة رسائل حكت فيها وصولها إلى بلاط الأمير المصري مصطفى بهجت فاضل. شدني سردها وإن كنت محتازًا إن كنت سأجد فيما أعطتني ما أبحث عنه.

ضايقني انجذابي لكتابتها. ربما غالبني هذا الشعور جراء تصرفي الأرعن معها حين كشفت لها عن شخصيتي ووظيفتي الحقيقية. راجعت نفسي مرارًا وأنا أحاول تبرير تسرُعي في الإفصاح عمَّن أكون، وكيف تخليت دون داعٍ عن ادعائي بأني صحفي يبغي نشر قصتها في التايمز. لم أعتد ضعفًا أمام دموع النساء. دمعها وهي تقترب مني فتمد كفيها محتضنة وجهي أثر فيَّ، وزاد على ذلك ما أشع به وجهها من

انكسار مخلوط بمحبة لم أستطع تفسيرها. مع هذا أجد في استسلامي وإفصاحي غرابة لا أستطيع تأويلها. ما زال بي شعور وصال وارتباط غير مفسر مع هذه السيدة التي قابلتها بالأمس لأول مرة في حياتي. العجيب أني بعد القليل ممَّا قرأت من سطورها أشعر بأني أعرفها منذ زمنٍ وأن بي تعاطفًا شديدًا معها ومع ما مرت به.

أسئلة كثيرة تجول بذهني حول ليديا ستون: ما الذي يجعل إنسانًا لا يعود إلى وطنه طوال هذه المدة؟ هل كانت هاربة؟ ومِمَّ هربت؟ مَن هو هنري؟ وإن كان عشقها له مستمرًا طوال هذه المدة فلِمَ اكتفت بكتابة رسائل أظنها علمت أنه لا طائل منها؟ مَن موريسون الذي تدعي أنه جنَّدها وأرسلها لتكون عينًا لبريطانيا في القسطنطينية؟

بدأت اليوم بمحاولة البحث عن السيد موريسون. قمت بزيارة أحد معارفي بمكتب الشئون الخارجية وذكرت له الاسم. استغرب صديقي أني أبحث عمَّن قد كان موظفًا قبل أربعة عقود أو أكثر. لم أستطع شرحًا مطولًا وإن حصلت على وعدٍ منه بأن يراجع الأرشيف، وأن يخبرني إن وجد ما يدل على هذا الشخص. طلبت منه أيضًا أن يبحث فيما يبحث عن مجموعة رسائل مشفرة مرسلة من سيدة إنجليزية اسمها ليديا ستون. برغم تعجبه أظن أن صديقي هذا انتقل إليه نفس فضولي ولذا سيحاول جديًا البحث ولن يهمل طلبي. أجد في التحقق فيما تدعي ليديا نقطة بداية مهمة كي أستبين إن كانت ما ستعطيني من معلومات ذات قيمة أو مجرد ترهات سيدة عجوز.

استرجعت الخطابات التي قرأتها بالأمس وأنا بالعمل اليوم فلاحظت نوعًا من التشتت والالتباس بكاتبتها. أجدها متحمسة لإشراك هنري بتفاصيل ما تمر به، ورغم ذلك، ففي أحيانٍ كثيرة تترك خيطًا ما تبدأ بسرده دون استكمال. شعرت بأنها تُحدِّث مَن تراسله وكأنه جالس إلى جوارها يستمع. حينئذٍ يصبح طبيعيًا أن تقفز من قصةٍ إلى أخرى حسب مجريات الحديث الذي يدور بذهنها. أكاد أجزم أن ترددها البادي نتيجة إحساسها بالذنب نحو هنري فيحضرني تساؤل: مع كل هذا الحب لمَ

تركته؟ ولمَ رضخت لحكم التفريق بينهما؟ وما الظروف التي تجعل مَن تعشق لهذه الدرجة تفارق حبيبها؟

انتبهت وهي تذكر ألبرت هارقي، أو اللورد ألبرت هارقي الآن، والذي أعرفه معرفة شخصية. ما حكايته مع ليديا؟ وهل سيتذكرها إن سألته عنها؟ وإن تذكرها، فهل سيبوح لي بقصته معها؟ لورد هارقي أحد أهم منتجي وموردي سلاح البحرية البريطانية، وقد تعاملت معه مرارًا أثناء خدمتي. بل إني زرته أكثر من مرة في ضيعته التي أشارت لها ليديا. أظن أني في الأيام القليلة القادمة سأقوم بزيارة جديدة إلى برمنجهام. فضولي يدفعني إلى الذهاب إلى هناك وربط الخيوط. سأقوم بتلك الزيارة بعد أن أقرأ المزيد من الخطابات لعلي أجد تفسيرات تجعل تساؤلاتي حين أتحدث معه أكثر دقة واستكمالًا لما أحتاجه من معلومات.

لفت انتباهي إشارة ليديا -في رسالتها الخامسة أو السادسة على ما أظن- إلى احتمالية ارتباط الأميرة نازلي بخليل باشا شريف. غلبني الفضول فبحثت عنه في ملفاتنا. تفهمت أسباب تحفظها على فكرة ارتباطهما. لكن في نفس الوقت وجدت من وصفها لنازلي أن إعجاب الأميرة به متسق مع شخصيتها. توجد تشابهات وتقاطعات مثيرة فيما بين سيرة أبيها والباشا. أول ما يربطهما صلة قرابة وعلاقة وثيقة بين الوالي محمد علي ووالد خليل باشا. كذلك جمع بين مصطفى فاضل وخليل شريف صراعهما مع الخديوِ إسماعيل حاكم مصر آنذاك الذي بادلهما العداء وبذل جهدًا جهيدًا في تهميشهما. دفع الكثير من الرشاوى لدى الباب العالي كي يستصدر فرمان تولية أبنائه الحكم من بعده ليحرم مصطفى فاضل من حقه الموروث في ولاية العهد. ولم يألُ جهدًا ولا مالًا وهو يرشو حاشية السلطان العثماني ليؤجل عدة مرات تولي خليل باشا منصب وزير الخارجية للدولة العثمانية، وإن باءت جهوده في النهاية إلى فشل لما تولى المنصب. وإن نجح إسماعيل بعد فترة قليلة في إبعاده عن الوزارة. أتخيل الأميرة الصغيرة وهي

منجذبة إلى رجل تعددت أسفاره وتنوعت مناصبه التي تولاها. لا بد وأنه خلب لبَّها وهو يحكي لها عن سفارته في ڤيينا وسان بطرسبرج، وعن الفترة التي قضاها في باريس. لم أملك سوى الابتسام وأنا أقرأ عن فضيحته الشهيرة وقت أن أقام في باريس، وإن راهنت أنه بالتأكيد لم يحكِ للأميرة الصغيرة تفاصيلها. لا بد وأنه أغراها بما يرتبط به عمله من كثرة أسفار وترحال إلى بلاد أوربا. ممَّا قرأته عن الأميرة نازلي وجدت أن وقوعها في حبائل الباشا أمر طبيعي يتمشى مع شخصيتها المتمردة التواقة للانطلاق والاستكشاف. ومع هذا أصبحت عندي قناعة بأنها لو قررت الارتباط به فسيتسق تمامًا مع ما دوَّنه أبوها عن قربها منه وكيف يراها الأكثر شبهًا به وتفهمًا لآرائه وتوجهاته. لو حانت لي فرصة الخوض في هذا الموضوع مع ليديا سأقنعها، دون شك، بمبررات صديقتها حين قررت المضي قدمًا في هذا الارتباط.. بي فضول شديد الآن كي أعرف إن كانت تلك الزيجة قد تمت أم لا، إذ لم أجد أي إشارة لها فيما قرأت عن خليل باشا.

أما أكثر ما أزعجني في زيارتي لها، فكان ذلك الشاب الأسود الذي لم ينبس بكلمة طوال جلستنا. ظل واقفًا دون حراك خلفها وكأنه تمثال يحرسها. لست عنصريًا ولكن الوجل ما زال يغالبني كلما التقيت أحد أصحاب البشرة الداكنة. منذ كنت ضابطًا شابًا مشاركًا في معركة أم درمان، أو بالأحرى مذبحتها، يغالبني ذلك الشجن المصحوب بعدم ارتياح حين أراهم. نظرته إليَّ وإن كانت مسالمة، بل كان بها بشاشتهم المعهودة، أزعجتني. تذكرت الآلاف من جثث المهديين التي تركناها على أرض المعركة تنحر فيها الجوارح. زارني من جديد ليلة أمس في منامي ذلك الكابوس المملوء بالدماء والذي لازمني سنوات طويلة بعد العودة من السودان. ذكرني وجه رفيق ليديا بأيام ظننت أنني دفنتها في غياهب عقلي. مشاهد وددت إن لم أحضرها. طوال جلستنا انفرجت شفتاه عن ابتسامة تنم عن طيب النفس ولكني وجدت فيها نوعًا من العتاب عمَّا اقترفناه في حق أبناء دمه وعشيرته. ما حدث في أم درمان سيظل يوغل في صدري ويؤرقني من حين إلى آخر. ولن يفتر شعوري

بخصوص أهوالها وسيلازمني، فيما أظن، حتى آخر العمر.

هذا الصباح، وقبل أن أذهب إلى العمل استخرجت قصاصة احتفظت بها، يروي فيها المراسل الحربي، آنذاك، ونستون تشرشل أهوال تلك المعركة التي قادنا فيها كتشنر للاقتصاص لمقتل جوردون باشا بأخذ أرواح أكثر من عشرة آلاف درويش. تُرى هل أحس مرافق ليديا بدماء أنسبائه تلطخ يدي؟ ولمَ يجب عليَّ أن أتحمل وزر ما حدث في أم درمان وحدي في حين كرَّمت الملكة قائدها واعتبرتها بريطانيا أحد أهم انتصاراتها؟ هل أنا دون غيري ذو الضمير؟ ولكن هكذا الحروب، يفنى فيها الآلاف من أجل تعزيز سطوة أو كسب أرض أو تعضيد ملك. يموتون من الجانبين وهم واثقون حين يغادرون الحياة أنهم على جانب الحق. يرحلون وهم لا يدرون أن ما افتدوه بحياتهم لا يستحق ذلك الثمن المغالى فيه. عشرة آلاف رجل لم يثمنوا حيواتهم وارتأوا أن يفتدوا بها ما آمنوا به واعتقدوا أن موتهم ثمن رخيص لانتصار معتقدهم. يأتيني الآن من جديد، وأنا أكتب هذه السطور، مشهد توالي هجومهم دون هوادة وأسلحتنا تحصد صفوفهم الواحد تلو الآخر، ومع هذا يتجدد إقدامهم برغم كثرة مَن يتساقطون منهم. هل كانوا شجعانًا أم كانوا بلهاء مسحت كلمات المهدي عقولهم؟ وهل كنا أبطالًا أم جبناء نحتمي خلف أسلحة لا قبل لمواجهينا بها؟

ومع هذا هأنذا ما زلت مستمرًا في خدمة وطني مؤمنًا بدوري في تعظيمه وتوطيد سطوتنا على العالم الذي نعيش فيه. تؤرقني أحيانًا الآثار الجانبية لتوسعات الإمبراطورية ولكني ما زلت على قناعتي بأننا الأجدر بحكم العالم .



7

مفكرة سيدني بويد

4فبراير1914

من وسط قراءاتي المستمرة عن مصر تحضيرًا لمهمتي استوقفتني اليوم هذه القصة عن حاكمها الأشهر في القرن الماضي: محمد علي. يُقال إنه سمع بكتاب الأمير لمكيافيلي فطلب من أرتين بيك، مترجمه، أن يُترجم له صفحة من الكتاب يوميًا. في اليوم العاشر ضحك محمد علي، أو لعله ضجر، فأمر المترجم بالتوقف عن الترجمة قائلًا له: «أملك من الحيل ما لم يخطر لمكيافيلي هذا على بال». والحق أنني كلما توغلت في القراءة والبحث عن مؤسس الأسرة العلوية الذي ما زال نسله يحكمون مصر، ولو شرفيًا، أجد أن أمثال مكيافيلي فعلًا تلاميذ في بحور مكر وحيل ذلك الرجل الذي لوهلةٍ كاد يكتفي باحتراف تجارة الدخان في ألبانيا، بلده الأصلي. تجذبني، منذ أيامي في أوكسفورد، القراءة في سِير زعماء الأمم، ومحمد علي قصة صعوده مثيرة وملهبة للخيال.

لا أستطيع أن أخفي إعجابي بأمثاله من رجال السياسة وأنا أحاول أن أستقرئ ما دار بخلده في كل مرحلة من مراحل صعوده. هل استهدف الوصول لحكم مصر حين وصل إليها نائبًا لكتيبة من الألبان لا يتعدى عددها ثلاثمائة جندي؟ أم أن مآربه تبلورت مع تطور الأحداث في مصر مطلع القرن الماضي؟ أدهشتني قدرة الباشا على التلون والانتقال ما بين المعسكرات المتناحرة، ليس فقط بسهولة ويسر، بل بترحابٍ وتلهفٍ من زعماء الناحية التي ينقل إليها ولاءه. ترحيب دون تساؤل ولا تشكك في أغراضه، بل بنوع من السرور أن انضم إلى جانبهم. كل

هذا دون أن يحاول أن يتصدر المشهد، بل يُصدِّر آخرين حتى يتحملوا وزر الفشل حال هزيمتهم فيما سعوا إليه. كلما تفكرت في الخطوات التي تتبعها ودقة مخططه الذي أوصله لعرش مصر؛ امتلأت إعجابًا به. في البداية تحالف مع مملوك تلو الآخر ممَّن صعد نجمهم إبان تلك الفترة الزمنية القصيرة التي تناوبوا فيها على حكم مصر. الغريب أنه كان حليفًا لكل مَن وصل إلى ذلك المنصب حتى رأى الوقت مناسبًا كي ينقل انحيازه للشعب وزعمائه. في تلك اللحظة استطاع أن يُقنع نقيب الأشراف عمر مكرم وكبير الأقباط جرجس الجوهري أنه معهم قلبًا وقالبًا. اقتنعوا به لدرجة أن قدموه على أنفسهم وفضلوا أجنبيًا خدعهم بكلامه عن العدل الغائب وحقوق شعب ضائعة حان وقت عودتها بعد طول غياب.

استعجبت حقيقة مواقف وتصرفات أولئك الزعماء المصريين، وإن لم يؤثر استغرابي منهم على تثميني لمثاليتهم. مثالية أقرب للسذاجة تتلاصق فيما يبدو لي مع الثوار في أنحاء العالم المختلفة. حتى هنا في بريطانيا حين قاد أوليفر كرومويل ثورة الشعب انتهى بعد فترة إلى تسليم الحكم من جديد إلى سلالة مَن ثاروا عليهم. مثله في ذلك مثل الفرنسيين بعد قيامهم بأعظم ثورات البشرية، وغيرهم وغيرهم من الشعوب. واضح لي أن ذلك من ضمن تراكيب البشر. العجيب أن عمر مكرم ومَن زاملوه لم يجدوا بأنفسهم قدرة ولا رغبة في الحكم ولو من أجل تحقيق أهداف ثورتهم. ثاروا بنزاهةٍ ليُرسوا مبادئ آمنوا بها لا من أجل سطوة. والأغرب أنهم وهم يثورون تحروا رضا مَن ظلمهم فكان همهم، وبأيديهم زمام الأمور، أن يسترضوا السلطان القابع بعيدًا على ضفاف البوسفور. هداهم تفكيرهم إلى أن يصروا على محمد علي حاكمًا بغية إرضاء الباب العالي. برغم نجاحهم وتسيدهم الموقف ظلوا على ولاء، مصدره العاطفة لدولة، اعتبروه مكملًا لتعاليم دينهم. وفي الوقت الذي كانوا هم يطاردون أحلامهم في إرساء العدل للشعب الذي نصبهم زعماؤه، كان محمد علي لا يترك بابًا دون طرقه. تواصل مع الفرنسيين وأقنعهم بأنه حليفهم فأرسل نابليون إلى مصر مبعوثه ماثيو ديلسبس

ليعضده لدى أشراف البلد. وكما تنتهي كل قصص التاريخ فيما يخص صراعات العروش، ما إن تولى الباشا، حتى بدأ في التخلص من كل مَن ساندوه في مسيرة صعوده، الواحد تلو الآخر. وبنفس الضراوة طارد، ربما بقسوةٍ أكبر، مَن عارضوا وصوله إلى سدة الحكم.

قراءاتي اليومين الماضيين في تاريخ مصر المعاصر جعلتني أكثر ثقة وفهمًا في اجتماعي هذا الصباح مع «سي». كعادته قام هو بمعظم الكلام، وإن كان أكثر تحديدًا هذه المرة، عن طبيعة المهمة التي يريد مني القيام بها في مصر. بدأ حديثه بأنه برغم أن هذا البلد تحت الحماية البريطانية وأن حكامها، منذ فرض تلك الحماية، منصاعون في الأغلب لرغباتنا، فإن توجه حكوماتنا الجديد في الوقت الحالي قد اختلف. تحدث عن دعوات الاستقلال التي علت نبراتها، وكيف أصبحت الشغل الشاغل لزعماء الحركة الوطنية المصرية. أشار أيضًا إلى المتغيرات على صعيد أوزبا وطبول الحرب التي أصبحت تصدح بشدة. شرح لي كيف ترى حكومتنا أن العثمانيين يترنحون وأن في صراع الإمبراطوريات المشتعل هذه الأيام، الفرصة مواتية كي نقضي عليهم. ولأن مصر درة تاجهم فقد وجب علينا التحرك نحو الفوز بها. لخص خطتنا في أن تعلن مصر استقلالها عن القسطنطينية وأن تصبح سلطنة مستقلة. استعرض معي تقارير رجالنا الآتية من هناك ووصولهم إلى قناعة أنه لا بد من البحث عن بديل للخديوِ الحالي الذي لن يجاري موضوع الاستقلال بالذات مع ولائه الشديد للباب العالي. يرون في عباس حلمي الثاني أيضًا خطورة نظرًا لشعبيته والتي ولو لم تكن جارفة إلا أنها تداعب عواطف الشعب نتيجة توجهاته الدينية الظاهرة. ومن هنا وصل إلى المطلوب مني وهو ببساطة، كما قال، البحث عن سلطان مصر القادم.

تحدث معي «سي» في البدائل المطروحة. البديل الأقل عنفًا كان أن نستبدل بالخديوِ عباس، الحاكم الحالي، أحد أفراد الأسرة العلوية، وبهذا لا نحدث رجة قوية لدى المصريين بالتغيير المزمع. سيبدو الأمر

كانتقال طبيعي للسلطة في وقت سيسعدون فيه بحصولهم على الاستقلال الذي علت حناجرهم بالمطالبة به. تسرعت باقتراح أن تنتقل السلطة من عباس إلى ولي عهده الأمير محمد عبد المنعم وتنصيبه سلطانًا. تبرم «سي» من اقتراحي وأسرع في شرح أسباب رفضه لهذا الاقتراح. ملخص اعتراضاته كانت أننا بتولية ولي العهد الحالي نضفي شرعية على النظام الذي سنته الإمبراطورية العثمانية لحكم مصر حتى وهي تعلن استقلالها. كما أنه تشكك في موافقة الابن على خلع الأب برغم سابقة توفيق في خلع أبيه إسماعيل. أشار إلى أن تحليلات مكتب الخدمة السرية قد توصلت إلى أنه حال اختارت بريطانيا أن يكون السلطان الجديد من الأسرة العلوية، فالأوقع أن يكون من أبناء الخديوِ إسماعيل. توصيتهم نبعت من درايتهم بأن أعمام الخديوِ الحالي يرون أنفسهم الأقدر منه على تسيير الأمور، وأن هذا التنافس والتنافر يصب في مصلحتنا. سمَّى لي مديري الأميرين حسين كامل وأخاه أحمد فؤاد، ابنَي الخديوِ إسماعيل، قائلًا إنهما المرشحان المحتملان. حين أذهب إلى مصر مطلع الشهر القادم سيكون عليَّ جمع أكبر كم من المعلومات عنهما كي أمكن أصحاب القرار في لندن من اختيار أحدهما.

أما المقترح الثاني المطروح فكان إنهاء حكم الأسرة العلوية كلها مع إعلان الاستقلال واختيار مصري لتولي الحكم. محمل خطورة هذا التوجه كان في راديكاليته والدوي الذي سيصحب وقوعه. يظن البعض في حكومتنا أن من الأفضل أن تؤخذ الأمور بهدوءٍ أكثر حتى تحوز القبول وتقلل من تذمر مُنتظَر من بعض قيادات الحركة الوطنية المصرية. أو كما سماها «سي» سياسة الخطوة بخطوة. الصعوبة التي تواجه هذا المقترح أيضًا كانت في العثور على الشخص المناسب، إذ لم يكن المصريون ليقبلوا بسهولةٍ بأي مَن نفرضه عليهم. فلو كان مَن ندفع به معلومًا ولاءه لنا سيلفظونه ولن يستقر لنا الحال كما نخطط. وفي الوقت ذاته لو اخترنا للحكم مؤمنًا حقيقيًا بوجوبية استقلالية مصر ونقل أقدارها إلى أيادي أبنائها فقد نفقد السيطرة على دولة دورها ومكانتها مهمين في الصراع العالمي الذي تخوضه بريطانيا. ومع تلك

المحاذير أشركني السيد «سي» اسم مرشح مصري كي أقوم أيضًا بتقييمه وأنا هناك. باشا من أثرياء الصعيد معروف عنه قوة الشخصية ورجاحة العقل وله محبة واحترام في أوساط الوطنيين المصريين.

حينما انتهى اجتماعي أصبح المنتظر مني في مهمتي المزمعة واضحًا جليًا. شعرت بالأهمية أن يوكل لي مثل هذا العمل ذي الأثر العميق. عزمت على حُسن تحضير نفسي كي أقوم بها على أكمل وجه، واخترت سبيلًا إلى ذلك أن أقرأ كل ما يمكن أن تقع يدي عليه من معلومات عن هذا البلد وأن أتحرى بكل السبل ما يمكن أن يمكنني من إتقان ما سيبعثونني من أجله. قفزت إلى ذهني على الفور ليديا وكيف أنها هدية ربانية، وكنز من المعلومات، بحكم طول إقامتها في مصر. ستمكنني بلا شك من فهم مجريات أمور ذلك البلد وطبيعة العلاقات المتشابكة بين أفراد الأسرة العلوية التي عاشت رفق أحد أعضائها عقودًا عدة. قررت أن أسرع وتيرتي في قراءة رسائلها حيث لم أصل بعد إلى وقت ارتحلت إلى مصر. ابتسمت وأنا أتذكر الرسائل التي استكملت قراءتها مساء الأمس فرحلت مع ليديا ونازلي من القسطنطينية إلى باريس. لا أستطيع إنكار طرافة وإثارة ما سطرته ليديا بالذات وهي تحكي ما تكشف لها والأميرة عن فضائح ومغامرات خليل باشا في عاصمة النور.

اكتمل اليوم بزيارة صديقي من مكتب الشئون الخارجية ليخطرني بأنه تمكن من الوصول إلى السيد موريسون. لم يصل إليه فعلًا وإن كان وصل إلى أنه كان هناك في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي موظف بهذا الاسم. لم يستطع أن يجد تفاصيل كثيرة عنه أو عن طبيعة عمله بالمكتب، ولكنه أخبرني بأنه حينذاك كان السيد موريسون في الأغلب في منتصف العشرينيات من عمره. أكثر ما أسعدني كانت ورقة أعطاها لي بها عنوان لمَن أبحث عنه. يبدو أنه سجله بمكتب الشئون الخارجية وقت تقاعده قبل حوالي عشر سنوات.

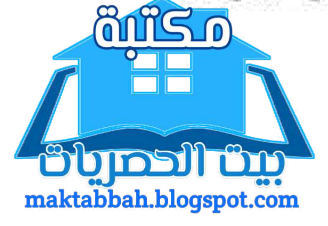
قبل أن أغادر المكتب أرسلت إلى اللورد هارفي في برمنجهام برقية أستأذنه في زيارته نهاية الأسبوع. سأكسب ثقة ليديا بأن أجد لها ما بحثت عنه، فتمدني بما أحتاجه من معلومات.

أنوي أيضًا الانتهاء من قراءة كل رسائلها الليلة، حيث أصبح بي شغف شديد لأن أستكشف قصتها، وأعرف ما عاصرت، وما رأت في رحلتها.



8

القسطنطينية 1 أغسطس 1870



هنري العزيز..

حزنت كثيرًا جدًا لما علمت بخبر وفاة تشارلز ديكينز. لقد كان كاتبي المفضل وطالما أسرتني رواياته. كم دمعت عيناي وأنا أقرأ قصة مدينتين، وكذلك أوليفر تويست. لا أخفيك أني بكيت حين عرفت بالخبر، كم كان عبقريًا متفردًا وأعرف أن ما كتبه سيخلده. هو أحد كتابي المفضلين لكن تتربع جين أوستن على عرش مَن أعشق من الروائيين. أظن أنني قرأت كبرياء وتحامل ما يربو على عشر مرات، وفي كل قراءة أكتشف عمقًا جديدًا فيما كتبت. طالما حلمت أنني ليزي بينيت بطلة الرواية وأستطيع أن أدعي أنني رأيت الجزء الخاص بليديا بينيت في تلك الرواية وهو يتشخص أمام عيني في منزل آل هارفي وإن اختلفت التفاصيل. فقط كانت نهاية ما عشته أكثر مأساوية ممًا سردت أوستن، ولكن بدايات القصة كانت شديدة التقارب. كم تؤثر فيّ الروايات حين تكون واقعيتها قاسية وصريحة كما صورتها كاتبتي المفضلة.

لم يكن آل هارفي متوسطي الحال مثل العائلة عند أوستن فقد كانوا أبعد ما يكونون عن ذلك. لو أن أوستن تعرفت عليهم لجعلت ابنهم هدفًا لإحدى بطلاتها الباحثات عن زوج من الأثرياء. ثراء فاحش ممتد منذ زمن جد السير هارفي الأكبر الذي أسس مصنع السلاح الذي أصبح أحد أكبر مصانع أسلحة برمنجهام وأشهرها. مصنع بدأ صغيرًا توارثته الأجيال وتوسعوا في منشآته التي بدأت بورشة صغيرة نهاية القرن

السابع عشر حتى صار مفخرة مركز صناعة السلاح في إنجلترا.

أما نحن فكنا تلك العائلة متوسطة الحال التي يعمل عائلها بوظيفة محترمة تمكنه من توفير حياة كريمة لأبنائه. كم اهتم أبي بتعليمنا وكأنه توقع يومًا أن ننكسر وأن يصبح تعليمنا هو مخرجنا من أزمات ستفرضها علينا الحياة حين تقرر أن تقسو علينا. تعلم يا هنري أن في حياتنا أحداثًا تحفر بغلظة ذكراها في أذهاننا. لا يفارقني مشهد أبي منكسرًا يوم عاد إلى المنزل وأخبرنا بصوت متردد، لم نعتده، أن البنك الذي قضى حياته موظفًا به قد استغنى عن خدماته. الأزمات المالية التي اجتاحت البلاد تلك الفترة أملت على المسئولين قرارهم. أتذكر صمت أمي وبلل عيني أبي، وهو يحاول أن يقلل من وقع الكارثة التي حلت بأسرتنا، بتطميننا أنه سيجد حتمًا وظيفة أخرى في القريب العاجل، لم يأتِ ذلك القريب العاجل، ومع تأخره نضبت مدخرات أبي التي كفلت لنا استمرار العيش على نفس المستوى الذي تعودناه شهورًا قليلة. أتصور الآن أن أبي، وقد فقد الأمل في توفير حياة كريمة اعتدناها، قرر أن ينسحب بهدوئه المعتاد. استيقظنا صباح يوم حزين لنجده وقد غادر الحياة دون جلبة. بدا لي وقتها أن انسحابه منطقي بعد أن غالبته أمواج عاتية لم يجد سبيلًا لملاطمتها.

خيم على منزلنا الذي كان سعيدًا صمت حزين شق على ساكنيه الخروج منه. انسحبت أمي هي الأخرى فغدت جسدًا حيًا وروحًا تائهة. انفصلت تمامًا عني أنا وأخي زاهدة في حياة لم تحسن إليها. كرست وقتها كله للإنجيل والكنيسة. هربت من الواقع بتمني الأحسن في مملكة الرب حين يأتي ميعادها. أصبح قس كنيستها هو الأهم في دنياها وكلماته عمًا ينتظرها في السماء من نعيم تصبرها على بلائها.

من وسط الغيم الذي كنا نعيشه جاءنا بصيص أمل لما نجح أخي في الحصول على وظيفة في شركة الهند الشرقية. أحزننا فراقه وهو يغادر إلى تلك البلاد البعيدة وإن حدانا تفاؤل بأنه على الأقل سيستطيع أن يوفر لنا سقف بيتٍ نحتمي به من قسوة العيش التي لفتنا منذ وفاة

أبي.

أترى التشابه بين ما مررت به ومآسي ديكينز يا عزيزي؟ لكن ما تمناه لي أبواي كان أقرب لما لو كانت چين أوستن متولية كتابة قصتي. فتاة من أسرة طيبة متوسطة الحال يُحسن تربيتها وتعليمها. تُعد منذ الصغر لغرض واحد وتجهز من أجله: زيجة برجل محترم تعيش في ظله وبستره. اهتمام أبي منذ ولدت بتعليمي وتشجيعه لي على ذلك طالما لاقى سخرية من أمي التي رأت في ذلك مضيعة لوقت بنت الأجدر بها أن تتفوق في فنون المطبخ وتدبيرات المنازل. ما بين توجهات الاثنين نشأت وبشخصيتي اكتمال واعتداد لم تنعم به كثيرات من أترابي. لعل هذا ما أشعرني بضآلتي وصديق أبي الوحيد، الذي استمر على صلة بنا، يغير بوصلته من أن أكون زوجة لابنه فيرشحني مربية لطفلتي آل هارفي الصغيرتين حين علم أنهم يبحثون عمَّن تملأ المنصب الشاغر. طوق نجاة دفعه هذا الرجل الوفي نحونا موقنًا بأنه بذلك يعزز فرص أسرتنا الصغيرة على الخروج من ضائقتها. لم أتردد في قبول الوظيفة برغم استغرابي أنهم قبلوني وأنا بلا خبرة سابقة.

انتقلت إلى بيتهم، أو بالأصح ضيعتهم، على مشارف برمنجهام. قصر منيف لا نهاية لعدد حجراته تحيط به حدائق مترامية تزينها أشجار جمالها في قِدمها. الليدي هارفي سيدة لطيفة وجدت فيَّ مهربًا من مسئولياتها تجاه تؤام البنات ذوات الأعوام الخمسة فسلمتهن لي. قصرت دورها في تربيتهن على قبلاتها لهن صباحًا حين الاستيقاظ، ومساءً قبل النوم. تفرغت هي لحياة اجتماعية عامرة بزيارات الأصدقاء والتخطيط للحفل التالي الذي تستضيف فيه علية قوم المدينة. التؤام فيما يبدو لم يكُن في خطة السير والليدي، إذ يبدو أنهن ولدن من لقاءٍ عابرٍ بين الزوجين أتى بعد سنين طويلة من وصول أولادهما الأكبر: ألبرت وكاثرين. ألبرت كان في أوائل العشرينيات من عمره، التحق بالدراسة في جامعة كمبريدج ليصبح محل تفاخر أبيه المتواصل.

لم يطل بي العيش وسطهم قبل أن أدرك أن السير هارفي همه وهدفه الأوحد هو الارتقاء بالعائلة من مصاف الأثرياء فقط إلى مصاف النبلاء أيضًا. من أجل هذا استمر في الجود دون تذمر على كل ما يقربه من البلاط الفيكتوري. بعد طول انتظار وفي أحد أعياد ميلاد جلالتها أنعمت عليه بلقب فارس المملكة ليتمم صعوده من مرتبة السيد هارفي المبجل إلى السير هارفي. أظن أن حيثيات الإنعام باللقب أشارت إلى «مجهوداته المستمرة في دعم الأعمال الخيرية والارتقاء بالمستوى المعيشي للأقل حظًا في المجتمع». وما إن انتهت احتفاليات لقب الفارس حتى بدأ من جديد العمل الدءوب والصرف الموجه من أجل الحصول على لقب اللورد. ما بين لقب الفارس والتحاق ألبرت بكمبريدج بدا للسير هارفي أنه على الدرب نحو أهدافه بأن تصبح العائلة جزءًا من الأرستقراطية البريطانية وليس فقط من أثرياء المملكة دون ألقاب. ابنه كان محل فخره وفرحه ومصدر تباهيه الدائم. وللحق كان يستحق زهو أبيه به: شاب وسيم ذو شخصية كلما تحدث امتلأت كلماته حكمة ورزانة تسبق عمره. وعن بعد كنت أنا فتاة يتجسد أمامها حلم حياتها في الارتباط بمثل ألبرت، الفتى الذي يمثل السعادة لأي فتاة. كلما رأيته في زياراته من الجامعة إلى برمنجهام ازداد انبهاري به وتسارعت دقات قلبي واندفعت بكل عواطفي في حبه.

في الوقت ذاته أصبح منتظرًا من كاترين الجميلة، ذات الثمانية عشر ربيعًا، أن تلعب هي أيضًا دورها في الصعود المنشود للعائلة. أدرك الآن أن الحفلات الراقصة التي توالى استضافتها في ضيعة هارفي لم تكن سوى لغرضٍ وحيد: صيد النبيل المناسب للابنة الكبرى. كم كانت تلك الليالي حالمة وسعيدة علت فيها أنغام الفالس وشباب العائلات يراقصون كاترين بغية اغتنام قلبها. لاحظت وقتها أنها غير مكترثة إلا قليلًا بما أحاط بها من اهتمام وأنها ظلت تلفظ دون أسباب منطقية مَن أرادوا أن يتقربوا منها. تقبّل أبوها رفضها لذلك الفتى أو الآخر كلما بينت له ابنته الذكية أنهم لم يكونوا على مستوى الثراء المنشود. ظلت تعزف أوتار حبه للمال برغم كثرة ما كان يختزنه منه. ماطلت بنجاح

إلحاح الأب والأم المستمر. ثم عرفنا فيما بعد أنها كانت تشتري وقتًا قبل أن تصدم العائلة باختيار فؤادها.

غريب جدًا كيف تميل قلوب الفتيات إلى الأبعد عن فكر وآمال الأهل. أرى أمامي هذه الأيام قصة ذات مغزى مماثل لقصة كاثرين وإن اختلفت تفاصيلها. أرى مَن وُلدت أميرة وترعرعت دون عوز تركض دون وعي نحو حلم لا نهاية مرجوة منه إلا الحزن وانكسار القلوب. أود أن أصيح بنازلي أن تحذر وإن كنت أخاف أن تتسبب صيحتي تلك في غضبة منها عليّ. أتفهم أحيانًا اندفاعها فيما هي مُقدمة عليه. لكن مهما بلغ بي التفهم يزداد بي الاستغراب أن تكون راغبة في الارتباط بمَن في سن أبيها. لعل العُرى الوثيقة بالأمير مصطفى بهجت وحنوه عليها يجعلانها تتجاهل انتظار وصول مَن يناسبها عمرًا. هل حبها لأبيها يدفعها دفعًا للارتباط بمَن في مثل سنه؟ هل وجدت في صديقه المقرب استمرارًا لما أحبته في والدها؟ هل خليل باشا شريف في سنه هذه هو أفضل مَن يكون زوجًا لنازلي الفاتنة؟ ، أنصحها بمواربة، كلما سنحت لي الفرصة لذلك، ولكن أشعر أنها تستقبل رسائلي المغلفة دون اكتراث. تتركني أتحدث وأتحدث وأنصح وأعدد الأسباب، ثم تبتسم في وجهي تلك الابتسامة المشرقة وكأنها تخبرني بأنها أخذت قرارها وأن كلامي لا طائل منه.

لا بد وأنك قد مللت ثرثرة الفتيات التي امتلأت بها رسالتي يا حبيبي. سأتركك الآن على وعدٍ بمعاودة الكتابة قريبًا. أشتاق إلى اليوم الذي لا أحكي لك فيه برسالة، بل أجلسك أمامي وأتملى في وجهك الوسيم ونحن نتجاذب أطراف الحديث.

المخلصة لك

ليديا





9

القسطنطينية 7 سبتمبر 1872

هنري العزيز..

كم وددت أن تشهد معي حفل زفاف نازلي الجميلة. أظنني عشت أسبوعًا من أحداث ألف ليلة وليلة انتهت بالأمس مع انتقالها إلى قصر زوجها المطل على البوسفور. بدأت الاحتفالات قبل أسبوع من اليوم بعد صلاة الجمعة التي تناظر عند المسلمين زيارتنا للكنيسة يوم الأحد. حضر إلى بيت الأمير مصطفى بهجت إمام القسطنطينية الأكبر وهذا لو تعلم شرف كبير. تصور مثلًا أن يحضر كبير الكرادلة إلى بيتك ليتمم غرس ابنتك. امتلأ البيت بالرجال من أقارب وأصدقاء الأمير ومثلهم من ناحية خليل باشا. بدأوا الاحتفال بقراءات من كتابهم المقدس «القرآن»، ثم تلا ذلك خطبة من الإمام في فضل الزواج وواجبات طرفيه كما يمليها دينهم. تمكنت من متابعة هذا الحدث، الذي يُمنع حضوره على النساء، من خلف ستار شمح لي ومعي ديالزاد هانم بالتلصص من ورائه. كان هناك كاتب بصحبة الإمام فتح دفترًا عريضًا وبدأ يسجل تفاصيل الزوجين. بعد أن طلب الباشا من الأمير أن يزوجه ابنته سأل الإمام الأمير إن كان موافقًا. ما فهمته أنه جرت العادة أن يعلن الأب موافقته بصفته وكيلًا عن ابنته، لكن الأمير آثر استدعاء نازلي كي تعلن ذلك بنفسها. لم أستغرب ما أتاه الأمير، فهو فيما يخص ابنته البكر لا يعاملها معاملة الحريم، بل يبجلها ويُعلي شأنها. يحب جدًا ما غذّاه فيها من شخصية مستقلة ذات إرادة. تباين غريب ظاهر بين ما يسلكه ويستمتع به من تعدُّد نسائه ووضعيتهن في مرتبة أدنى، وإكباره الواضح لنازلي. أراه يتعامل معها بحداثة وتقدمية غير موجودة في الغرب المتغني بالمكانة التي أصبحت عليها المرأة فيه. غريب أمر الرجال الشرقيين، وكيف يضنون على زوجاتهم بما يعطون بناتهم من

حقوق لمجرد أنهن يحملن أسماءهم. بعد أن أعلنت نازلي موافقتها قامت بالتوقيع في الدفتر ومن بعدها الشهود، ثم انسحبت من مجلس الرجال. ضج القصر ذلك اليوم بأصوات المغنيين والفرقة الراقصة التي استمرت في عروضها حتى انتصف الليل. لن تصدق ما حدث يوم الأربعاء الماضي. تجمَّعنا جميعًا في مسيرة كبيرة من القصر إلى بيت الزوجية. تقدم المسيرة مندوب السلطان الذي بعثه تكريمًا للعروسين. يُقال إنه في الأزمنة الماضية كان السلطان يحضر بنفسه. خلف المندوب سارت عشر عربات محملة بصناديق مرصعة تحمل أغراض الأميرة إلى بيتها الجديد. جروا خلفهم شجرة طولها ثلاثون أو أربعون قدمًا على الأقل حتى تقزَّمت أمامها شرفات المنازل في الشوارع الضيقة التي مررنا بها. زينت أغصانها الهدايا والزخارف والحلي ولفَّتها أشرطة ملونة زادت منظرها بهاءً. سار خلف تلك الشجرة الضخمة، التي ثقلت بما حملت، مجموعة من العازفين وضاربي الطبول الذين صدحت موسيقاهم طوال سيرنا. وتبع هؤلاء صفان من العبيد السمر يضربون بكرابيجهم في الهواء بانتظام متناغم مع دقات الطبول وهم يجرون أمام هودج مذهب مشغول باللآلئ. حملت الهودج فوق رؤوسهن عشر من حريم الأمير. في داخله جلست نازلي وقد ارتدت قفطانًا تقليديًا صدره مشغول بخيوط الحرير والذهب. حين وصلنا إلى قصر الباشا قضينا عدة ساعات والأميرة تشرف على وضع أغراضها في أركان بيتها الجديد ثم عدنا إلى قصر الأمير وسهرنا الليلة مستمتعين برقصات الفرقة الأرمنية التي استقدمها أبوها. أما يوم الزفاف فقد بدأنا عند الظهر حين توجهنا إلى حمام مخصص لعلية القوم تم استئجاره بأكمله. حين وصلنا وقفت نازلي على بابه مستأذنة قبل أن تخرج إليها الفتيات العاملات به وقد لبسن ملابس مزركشة ألوانها شجية وشددنها إلى الداخل. ما إن دخلنا حتى جردنها من ثيابها كلها ثم ذرن بها في أنحاء الحمام وهن يغنين أغاني نغماتها راقصة تقطعها كل حين صيحات يصدرنها بألسنتهن. لا أخفي عنك أني حاولت مجاراتهن في تلك الصيحات ففشلت فشلًا ذريعًا. حين انتهين من دورتهن في أرجاء

المكان أخذن العروس وحمَّمنها وطيبنها بالعطور قبل أن يُلبسنها ثوب الزفاف الذي كان منتظرنا هناك. اختارت نازلي ثوبًا حاكوه لها خصيصًا في باريس. ثوب أبيض صدره مشغول بالألماسات المربوطة بخيوط ذهبية. بدت صديقتي جميلة في ثوب عرسها، يُشع وجهها ضياء، وتتألق وجنتاها باحمرار خفيف أحسنت إحدى فتيات الحمام إبرازه بمسحوق مخصوص.

في المساء أقيمت مأدبة لا وصف لها إلا بالفخامة. تجمع حولها الضيوف والأشراف ممَّن تمت دعوتهم إلى الزفاف. قبل منتصف الليل بقليل قام خليل باشا مستأذنًا الأمير في الانصراف. حينذاك أتانا الأمير، حيث تجمعت النسوة، ليصطحب نازلي إلى حيث انتظرها زوجها. لوحت لنا بيديها عند مدخل القصر قبل أن يصعدا معًا إلى العربة التي أقلتهما إلى منزل الزوجية. ذكرت لك يا هنري في رسالتي السابقة تحفظي على هذه الزيجة وتخوفي من فارق السن الكبير بين الزوجين. ما زال بي شيء من القلق على صديقتي، وإن كانت مخاوفي قد قلّت لما عرفت أكثر عن الباشا. برغم أنه في سن أبيها إلا أنه في المجمل زوج تتمناه الكثيرات. هو شخصية ارتبطت بها العظمة بما حققه في حياته العملية. لم يركن إلى أنه سليل عائلة من كبريات العائلات، بل اختار أن تكون له بصمة من خلال خدمته لوطنه. تقلّد مناصب عدة ومهمة سفيرًا للقسطنطينية في روسيا والنمسا، كما عمل فترة في باريس ممثلًا للسلطان هناك فيما يخص الشئون الثقافية. ممَّا تحكيه نازلي عنه أجده رجلًا يبجل المرأة ويحسن معاملتها، وإن كان ما زال بي قلق أن يكون خبيرًا في الوصول لقلب المرأة وقت أن يريد. كم من الرجال يجيدون فن تملك قلوب النساء بالذات لو أن مَن يخطبن ودهن لم يختبرن الحياة بعد. أحاول أن أسكت مخاوفي تلك بأن أعزوها إلى تجربتي الحزينة التي جعلتني متوجسة من الرجال في عمومهم.

أحداث الأسبوع الماضي أعادت إليَّ ذكرى أقل سعادة ارتبطت بحفل

زفاف آخر شاركت في إعداده وتفاصيله. تسارعت أمام عيني الأيام التي عشتها وآل هارفي يعدون لزواج كاثرين. اختارتني أمها لأعاونها في الترتيبات بعد أن اختارت العروس ألا تشارك في أي استعدادات. كانت خطط السير والليدي قد نجحت في اصطياد مَن اعتبروه عريسًا مناسبًا لطموحاتهم في الارتباط بمَن هم أعلى في سلم الأرستقراطية منهم. وريث منتظر لدوقية لم يتبقَّ منها سوى الاسم بعد أن نضبت مصادر ثرائها. استطاعوا فقط أن يحافظوا، بما تبقى لهم من شحيح ثروة، على مظاهر تتناسب مع اللقب العظيم الذي يحملونه. تلاقت إرادة العائلتين، فإحداهما تبحث عن اللقب والأخرى تبحث عن ثروة تبقيها في مصاف علية القوم. زيجة أشبه بالصفقات التجارية التي أجاد إبرامها والد العروس طوال حياته. تجاهلوا اعتراض كاثرين وازدادوا عنادًا لما صارحتهم بأن قلبها اختار آخر من العوام. حين أسرَّت بما في فؤادها لأمها ظنت أنها ستقف إلى جانبها وستقنع الأب بمَن اختارت. لكن الصغيرة فوجئت برفض وتجاهل لرغبتها وتقليل وازدراء لمشاعرها. بكت وصرخت وهددت وتوسلت دون جدوى، بل ازداد مع دموعها تعنتهم. ما استعجبته أن العريس لم يلحظ أو لنقل لم يأبه بما رأى من جفاء كاثرين. ما سوف يصيبه من ثراء جراء الزيجة، أو الصفقة، كان كل همه فيما أظن.

لم يكتفِ السير هارفي، فيما علمت بعد ذلك، بالمضي فيما خطط. قرر أن يحتاط فبعث في طلب مَن حكت لهم عنه كاثرين أنه حبيبها المختار. نجح في إبرام صفقة جديدة اشترى بها مغادرة الفتى برمنجهام مقابل ما يضمن له العيش في رغدٍ حتى نهاية عمره. باع الحبيب حبيبته مقابل الذهب فاختفى دون حتى رسالة فراق. ظن أبوها أنه يكشف لها زيف عشقها حين أطلعها على عقد اتفاقه مع مَن اختارته، مرفق به إيصال موقَّع بتسلمه ثمن هجرها. أتذكر الأيام التي سبقت يوم الزفاف وكيف ذبلت الجميلة كاثرين. بدت كمَن انسحبت روحها من جسدها. نضبت الدموع في مقلتيها واختفت ابتسامتها التي كانت تضيء وجهها واختفى وهج جمالها. يوم الزفاف الموعود

اختارت الجميلة أن تكون جوليت في غياب روميو فضّل النذالة دربًا. اجترعت كاثرين السم مفضلة الموت على حياةٍ لم يُقبل لها أن تختار مساراتها فيها. أتدري يا هنري أول ما فعله أبوها حين أخبروه بأن ابنته لم تعُد سوى جثة؟ سارع بشراء شهادة طبيب فاسد بأن ميتتها طبيعية. في اليوم التالي وفي الكنيسة التي كانت مزينة لزفافها شيعوا جنازتها وواروها في التراب مع قصتها. لم أصدق برودهم وهم يتقبلون العزاء فيمَن قتلوها بقسوتهم. الوحيد الذي بدا عليه الحزن يومها كان ألبرت. خفق قلبي لانكساره ذلك اليوم، واقتربت منه وبي ما بي من عاطفة نحوه. حين عدنا إلى المنزل ذلك اليوم ظللت إلى جواره صامتة وإن نطقت عيناي فيما أظن بما يفيض به قلبي. لم أستحِ حين واتتني الفرصة أن أحتضنه فشعرت بنبضه الحزين يلف جسدي. طال حضننا إلى أن جاءت اللحظة التي تحول من حضن إلى قبلة طويلة أعذب بكثير ممًا تخيلتها. كانت تلك هي القبلة الأولى في حياتي وما زلت أشعر بها على شفتي. حتى يومنا هذا ملمسها وطعمها ورائحتها يلازمونني. نسيت في تلك اللحظة كآبة موت كاثرين، فأصبحت مثل أهلها أحتفي وأسعد في أنانية بما مررت به أنا، متناسية الفتاة الجميلة التي رحلت. فرحة لعوب أعلنت بداية مأساتي الشخصية.

لا أدري إن كانت بي قدرة بعد على أن أحكي لك على ما مررت به. لعلي لن أستطيع يومًا أن أخوض معك في أحزاني. أتردد في أن أطلعك على تفاصيل تكرب أيامك. كفى لأحدنا بحمله دون أن يفرض على الآخر تعاسته. سأشركك سرًا يا هنري. رسالتي هذه ليست الأولى بعد انقطاع سنين كما قد تظن. كتبت لك مرارًا ثم مزقت ما كتبت حين وجدت بها كآبة. أريد أن أكون مصدر بهجة وسعادة لا سبب شجن وأسى.

احبك

ليديا

10

القسطنطينية 15 يناير 1874

هنري العزيز..

اليوم أتممت العقد الثالث من عمري. وأنا في سنين مراهقتي تعلقت أحلامي بما سأحققه عند بلوغي الثلاثين. تصورت أنني سأكون في هذه السن زوجة ولديَّ طفلان، وأعمل على إنهاء الفصول الأخيرة من روايتي الأولى، التي ستخلب عقول القراء، وتبوأني مكانتي في مصاف عظماء الأدب الإنجليزي. بدلًا من هذا أنا غريبة أعيش منذ خمس سنوات في بلاد بعيدة عن الوطن. حياتي أيامها متشابهة لدرجة أني لو أسقطت معظمها لن يفوت ذاكرتي حدث بعينه. وأنا فتاة صغيرة كنت أتعجل بلوغ سني هذه. أتمنى الآن لو باستطاعتي أن أعود تلك الصغيرة من جديد. حينذاك سأبدأ واعية للأخطار التي سأتعرض لها دون خبرة كافية في الحياة. خبرة كانت ستعينني على المراوغة وتلافي الوقوع في أخطاء جعلت أحلام المراهقة مستحيلة. وصلت اليوم إلى محطة جديدة في عمري مضطرة معها على التخلي عن القدرة على المغامرة والتحلي بما هو منتظر ممَّن في الثلاثين من حكمةٍ ونضوج. أسئلة عدة بذهني تحتاج إلى إجابة: ماذا أفعل هنا؟ وهل حان وقت الرحيل؟ يوم وصلت القسطنطينية كلفتني ماكنلي بأن أكون معلمة لنازلي، ولكن تلميذتي الآن زوجة في بيت الباشا. نعم انتقلت معها إلى بيتها الجديد ولكني الآن مجرد مرافقة للأميرة، أو كما يسمون أمثالي وصيفتها. أصعب ما في أيامي حين أستيقظ أن قرار ما سأفعله ليس بيدي ولكن يمليه مزاج ورغبات غيري. أجدني ظلًا خافتًا، تابعة لا صوت لي إلا حين تدعوني لأسامرها. لا أنكر أنها تبوح لي بكل أسرارها وتأخذ برأيي في شئونها. أستطيع أن أقول إننا أصبحنا أقرب الأصدقاء. بالتأكيد أستمتع بهذا القرب وأحبها من كل قلبي، لكن يجول

بخاطري دومًا جدوى استقراري إلى جانبها وإلى متى يطول. أوقات أنظر إليها فتختلط مشاعري نحوها بين إعجاب شديد وغيرة. لا أخجل من تلك الغيرة إذ أراها طبيعية ووليدة ذلك الإعجاب الذي غلبني منذ التقيتها. أوقن أن الإعجاب والغيرة هما وجهَي عملة الحب. أعرف أنني لن أكون يومًا مثلها أو حتى مقاربة لمكانتها فتتوقف حينذاك غيرتي وتتحول إلى انبهار بها.

حياة نازلي، التي يتمناها الكثيرون، ليست خالية من تعاسة وكثرة من الأحزان. زواجها ليس الأمثل إذ تحولت سريعًا إلى قطعة من حُلي الباشا مثلها في ذلك مثل المعتاد لقاطنات الحريم العثماني. أو لعله المعتاد لنساء العالم، مكان على بعد خطوة أو خطوتين من رجالهن، يُلبين النداء حين يصدر. أغلب أوقات حياتهن يقضينه في انتظار علو صوت الرغبة في صدر رجلهن. وبعد أن يُشبعوا ما به من اشتهاء يغُدن باستكانةٍ تابعات في ظله. هكذا يا هنري تستطيع أن تقول إن نازلي ظِل خليل وأنا ظلها. لكن نازلي غير قابلة أن تتوارى خلفه والباشا لا يرى لها سوى ذلك ويستكثر عليها ما تطالب به. ربما ظلمها والدها لمَّا رباها حرة وذات رأي وحضور. كلامها معي به مسحة شجن، تحاول أن تخفيها، من أحوال زواجها. تمنت أن تكون شريكة له ولكن فارق السن وما يمليه المجتمع جعلوا أمنيتها صعبة المنال. لم تبُح لي ولكني أشعر بأنها، بعد أن هرعت لهذا الارتباط، مفتقدة أن تكون مغرمة برفيقها.

تحسن مزاج نازلي مؤخرًا مع ثبوت حملها. لا تأبه لأعراض الحمل وسخافتها من تعب وإرهاق ولكنها سعيدة بما تنتظر خروجه من رحمها. أرى في عينيها تلك الحماسة التي تعودت عليها قبل أن تطفئها بدايات زواجها. تسهب في أحاديثها معي عمَّا ترغب في أن يكون عليه طفلها. تتحدث باستمرار عن الوليد المنتظر بصيغة المذكر حتى إنها تشير إليه باسم مصطفى الذي اختارته له. لا أحاول أن أستوقفها أو أذكرها بأنها قد تكون حاملًا في أنثى، بل إني تحاشيت أن أسألها ما ستسميها لو رزقت ببنت. ليس بغريب أن كل نساء العالم يشتقن إلى

إنجاب الذكور. كيف لا تميل أم إلى الأفضل لوليدها. في كل الأزمنة الأفضل أن تكون رجلًا تعيش بحرية لا تتوفر للإناث. حين تنطلق نازلي في الحكي عن طفلها أرغب من وسط انكساري في أن أصرخ في وجهها لأذكرها بكم الألم الذي يصيبني به حديثها. لا أملك سوى أن أكتم حزني، فلا لوم عليها وأنا لم أجرؤ يومًا أن أشركها سرّي الدفين.

أسرح وأنا أنصت إليها فيطير بي ذهني إلى أيام عشت الأحاسيس التي تخالج صديقتي. أيام تماوجت عليَّ فيها مشاعر الفرحة والتمني والتعاسة واليأس. فرحة أن أكون أمًا، وتمني أن يشب طفلي في دفء أبويه، وحزن على ما انتهى له حالي، ويأس من تبدل ما قرره لي القدر. لعلي اليوم، ومع وصولي لسن الثلاثين، أقلع عن لوم القدر وأتحمل مغبة ما اقترفت بوعي ودون تردد.

الغريب أنه برغم نهاية قصتي البائسة إلا أنني ما زلت أستطعم لحظات السعادة التي ذقتها في أثنائها. كيف سرقنا الأحضان، ألبرت وأنا، بعيدًا عن الأعين واستمتعنا بقبلات طويلة روت شغفنا. أؤمن الآن بأننا لا نُقدِّر اللحظة حتى تتحول ذكرى. ولكن القبلات دائمًا خادعة، فهي تقربك ممَّن تلتصق به شفتاك فلا ترى به خطأ. كم كانت القبلة الأولى رائعة وكم كانت عنوانًا لاستسلامي له. قبلة أقرب للخدعة الجميلة التي تغنينا عن الكلمات وتغطي عقولنا بضباب مستساغ يحيل واقعنا أحلامًا بديعة. لم أحتج إلى محايلة منه كي أسلمه جسدي. لن أدعي أنني قاومت لأني أردت مثلما أراد. في تلك الليلة والليالي التي تلتها كنت أنا مَن أتسلل إلى مخدعه راغبة. وكيف لا أتوق إلى حضنه وإلى ترجمة كل ما جاش به صدري من مشاعر؟ في كل مرة أخذني ألبرت وتوحد جسدانا، تناوب عليَّ الألم والمتعة والمفاجأة والرضا في آنٍ واحد. ألم انسحابه وعودته المرة تلو الأخرى وهو يُغِير على مكمن أنوثتي. ومتعة أن ما خبرته كان أروع وأكثر إبهاجًا ممَّا كنت أتصوره. ومفاجأة تقبلي لغزوه العميق والمطول لجسدي وترحيبي بذلك التسيد الذي أتقنه، والرضا الذي غلبني وأنا أعطي بلا شروط لمَن اخترته

حبيبًا. ولكن فيما يبدو أن الحب الأول لا يحمل تلك الصفة إلا مع تحطيمه لقلب حامله. لم يكن بي شك ولو للحظة في النهاية المرجوة من علاقتي بألبرت. لم أقلق من تأخره في عرض الزواج عليَّ وعزوت ذلك فقط لتحريه الوقت المناسب ليُشرك أهله اختياره بعد أن يتجاوزوا ولو جزئيًا مأساة فقد كاثرين.

حين أيقنت أن ما بي أعراض حمل هرعت فرحة أشركه الخبر. تصورت ردود فعل مختلفة منه تراوحت ما بين مفاجأة وقلق عليَّ وشعور بمسئولية نحوي ونحو الجنين الذي صنعناه سويًا. كنت متأكدة أن سعادته ستكون مفرطة حين يعلم، فهو مَن لا يكل عن الهمس في أذني بعشقه لي ورغبته التي لا تفتر. أكثر ما جرحني وأنا أخبره كان رده الجاهز. بدا لي أنه اختبر هذا الموقف من قبل وأنه كان منتظرًا حدوثه ليُخطرني، أو بالأحرى، يأمرني بضرورة التخلص ممَّا أحمل. أشار إلى ضرورة مغادرتي المنزل على الفور وهو يملي عليَّ عنوان الدَّايَة التي ستقوم بإجهاضي. لم أذرف دمعًا وكلماته تتوالى عليَّ كالصفعات. كلما أمعنت النظر إلى وجهه تلاشت الملامح التي وقعت في غرامها وطفت مكانها تقاطيع قسوة أمه وأبيه. كم كنت ساذجة حين أقنعت نفسي، وأنا أقع في حبائله، بأنه ليس من نفس نبتهم. لم أجد بي قدرة على مناقشته أو محاولة إقناعه، إذ سد عليَّ كل الطرق بقطعية رغباته وتعليماته.

نفذت تعليماته، أو لنقل تبجحه، بأن أعتذر لأمه عن عدم قدرتي على الاستمرار مربية للصغيرتين نظرًا لحاجة أمي لي. حملت متاعي عائدة لبيت الأشباح الحزين الذي كان يومًا بيت أهلي النابض بالحياة. وجدت أمي متشحة بالسواد لا تتكلم سوى عمًّا ينتظرها حين يختارها الرب إلى جواره. لم تعُد بها رغبة سوى للأبدية التي كرست حياتها الأرضية من أجل الفوز بها. أدركت سريعًا أنني لو أطلعتها على السر الذي أحمله لن يصيبني منها سوى اللعنات وستصمني بأنني من أبناء الشيطان. ستعلنني خاطئة وستلفظني كما يملي عليها تدينها.

فكرت آنذاك في أن المخرج الوحيد لي في عنوان الداية الذي نصحني به ألبرت رغم دناءة مقترحه. ذهبت إليها مرات، وفي كل مرة توقفت مترددة أن أطرق بابها، وعدت من حيث أتيت. تنامى بداخلي ارتباط بما في رحمي منعني من فكرة الخلاص منه. لكني في الوقت ذاته بدأت أخشى نظرات المجتمع متى بدأ حملي يُظهر علاماته. لم يخطر ببالي كما في القصص المشابهة أن أنهي حياتي عند هذا الحد. لا أدري إن كان ما حملته هو ما منعني أم رغبتي في الارتشاف من حياة لم أستمتع فيها بعد إلا بلحظات قصيرة.

أريد أن أتوقف هنا، فقد غلبني الشجن. في الأغلب هذه رسالة سأمزقها دون تفكير. أرتاح حين أفضفض معك عمَّا بقلبي، ولكن أظنني تعديت خطوطًا، وعدت نفسي بألا أتخطاها، وأنا أسترسل في هذا الخطاب. لا ذنب لك فيما اقترفت ولا يجب أن أحملك همومي. برغم فراقنا لم تكن يا حبيبي حملًا في أي وقت. غرضي لن يكون يومًا أن أشعرك ببؤسي فتشفق عليّ. لو أنني لم أتخلص ممَّا كتبت هذه المرة ووصلك فرجاء يا هنري تقبل اعتذاري.

المخلصة لك

ليديا





11



مفكرة سيدني بويد

5فبراير1914

ما زلت أحاول تفهم وتحليل ما شهدت من أحداث اليوم. الخلاصة التي وصلت إليها أن ليديا ستون قصتها متشعبة وليست بالبساطة التي تصورتها. ليست حكاية سيدة عاشت سنوات في الغربة وعادت إلى بريطانيا لنعرف منها معلومات عن مصر وحياتها هناك.

في الصباح قررت أن أذهب لأتحدث معها وأجعلها تفصح عن معلومات أكثر ممَّا احتوته الرسائل التي قرأتها حتى الآن. وجدت أني بما عرفت ممَّا قرأت سأستطيع أن أكتسب ثقتها وأجعلها تسترسل في الحكي فتزيدني معلومات مهمة لمهمتي. كان شاغلي أن ما اطلعت عليه شديد الخصوصية ولا يتطرق بما هو كافٍ إلى الشأن العام. أعترف أن قصصها شدتني، وأني أريد بلا شك أن أستكمل القراءة. ولكن أصبحت عندي شكوك في أن ما سأجده فيما دونت سيكون مفيدًا لما أبحث عنه وما أرسلني مديري من أجله.

حين وصلت إلى بادينجتون، وقبل أن أعبر من الرصيف المواجه للفندق، فوجئت بمرافقها الأسود يخرج من الباب. توقفت مكاني فوجدته يبدأ السير تجاه وسط المدينة. لا أدري دافعي ولكني قررت أن أتبعه. تركت بيني وبينه مسافة حتى لا يشعر بي وأنا أسير خلفه. استغربت مشيه بثقة العارف باتجاهه وهو الغريب عن المدينة. أكثر من ساعة من الزمن قطعت فيها ثلاثة أو أربعة أميال أتبعه قبل أن يبدأ في تهدئة خطواته ففهمت أننا وصلنا إلى مقصده. توقف لحظات أمام كنيسة سانت إيثلدريدا بميدان إيلاي على رأس شارع هاتون جاردنز فتفكرت أنه ربما كاثوليكي يبحث عن مكان للصلاة. لكنه لم يُطل وقفته

وبدأ يخطو إلى داخل الشارع الشهير بمحلات المجوهرات.

ما تبع ذلك بدا لي كالخيال. كنت أعرف المنطقة المشهورة بمحلات الصاغة جيدًا، فقد زرتها عدة مرات من قبل. اصطفت محال المصوغات على جانبي الشارع وقد علا كلًا منها لافتات تحمل أسماء ملاكها وأغلبهم من اليهود. بعد أن مر من أمام درة متاجر الشارع، محل دي بيرس الأشهر، أبطأ من خطواته قبل أن يدلف إلى داخل محل صغير. وقفت على بعد وسجلت في ذهني الاسم الذي كان على اليافطة: مجوهرات هاجوبيان. قررت أن أنتظر خروجه ثم أحاول أن أستفسر ممّن بداخل المحل عن غرض زيارته. بعد خمس دقائق أو أقل خرج من المحل فتى في مقتبل العمر تسارعت خطواته نحو رجل الشرطة الواقف في منتصف الشارع. تبادل معه كلمات لم تطل قبل أن يسيرا معًا مسرعين صوب الدكان. بعد أن دخلا تنامى إلى مسامعي أصوات مَن بالداخل وقد علت.

ـ لص.. لص.. اقبض عليه!

تجمّع حول باب المحل مَن وصل إليهم الصياح الذي تعالى. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يخرج الشرطي وقد اقتاد الأسود أمامه، وإلى جانبه الفتى الذي استدعاه، ومن بعده هاجوبيان صاحب المكان. أدركت حينذاك أن وجهتهم مخفر الشرطة الذي على بُعد شارعين. تبعتهم دون تفكير إلى المخفر قبل أن أكتفي بما شاهدت وأغادر. لم أجد لي دورًا فيما يحدث، ولم أرد أن أكشف عن وجودي. احترت إن كنت أعود إلى الفندق وألتقي ليديا كما عزمت في الصباح، أم أعود أدراجي إلى مكتبي. فضّلت أن أؤجل زيارتي لها للغد حتى أستجلي موضوع مرافقها. عدت إلى المكتب وقد قررت أن أمر على الشرطة في المساء لأستوضح أسباب ما دار في هاتون جاردنز.

شغلني ما شهدت طوال مكوثي في مكتبي حتى قرب المساء. كثرت بذهني التساؤلات: ما هي المجوهرات التي سرقها؟ وكيف وصلت إليها

يداه؟ هل سرق ليديا المسكينة؟ ومن أين لها هذه المجوهرات؟ هل وصلها خبر القبض عليه؟ وإن كان وصلها، ماذا هي فاعلة؟ قررت أن أمر عليها قبل زيارة الشرطة. أردت أن أستكشف مدى درايتها بالمجريات.

قبل أن أغادر المكتب أتاني الساعي كما اعتاد بنسخةٍ من جريدة الإيڤننج ستاندرد المسائية. فوجئت بالعنوان المثير الذي تصدرها: «القبض على لص مجوهرات بهاتون جاردنز». استغربت أن نُشر الخبر في عدد اليوم. في متن الموضوع وجدت تفاصيل صغيرة أن اللص المذكور، وهو رجل أسود، عرض عقدًا ماسيًا للبيع على أحد تجار الشارع الشهير بصاغته. وحين تبيّن للصائغ أن القطعة المعروضة عليها ختم عبد الحميد الثاني سلطان العثمانيين المخلوع شك في الأمر وقام باستدعاء الشرطة التي تحفّظت على الرجل وما عرضه للبيع. كنت أعرف أن الجرائد، بالذات التي تهوى الإثارة، لها صحفيون شبه مقيمين في مخافر الشرطة، لكني لم أتصور أن يتسرب خبر كهذا بهذه السرعة.

أعدت قراءة الخبر عدة مرات وقد أصبحت بي حيرة فيما يجب عليَّ فعله. ليديا ستون مسئوليتي كما وجهني المدير، وهي الآن بطريقةٍ أو بأخرى واقعة في مشكلة. اختلطت الأمور عليَّ ولم تعُد بي قدرة على أخذ قرار بما يجب عليَّ فعله.

لم يكتفِ اليوم بما حمله من أحداث، إذ قطع أفكاري السيد «سي» باصطحابه رجل أجنبي تقاطيعه غير إنجليزية إلى مكتبي. لفت نظري سواد شعره وحواجبه الكثيفة التي احتلت مكانًا بارزًا فوق عينيه الكحيلتين.

- سيدني، هذا تيجران ساركسيان، عمل لأطول وقت مترجمًا لقنصلنا في القسطنطينية وانتقل مؤخرًا على قوة مكتبنا.

أدركت على الفور من الاسم وتقاطيع وجه الرجل أنه أرمني. اندهشت لما وجدت «سي» يقول قبل أن يغادرنا:

- لدينا مشكلة مع السيدة ستون أريدك أن تتولى حلها مع تيجران. سأتركه يشرح لك ما جرى وعليكما سرعة التعامل مع الموضوع. نحن في غنى عن أي شوشرة.

تركت ضيفي يحكي لي عمّا دار في هاتون جاردنز صباحًا دون أن أعلمه بأني شهدت معظمه. شرح لي أن الجواهرجي شك في رفيق ليديا حين وجده يعرض عليه قطعة ثمينة عليها ختم السلطان عبد الحميد الثاني. أسهب في تفسير حساسية الأرمن في كل ما يتعلق بمَن يُلقبونه بالسلطان الدموي من فرط ما أجرم في حق بني وطنهم.

استمر في الحكي فأخبرني بأنه بعد القبض على الرجل تم الاتصال بأعضاء الحركة الوطنية الأرمنية بلندن وهو أحد ناشطيها. اتفقوا على أن الأفضل لأغراضهم أن لا يُثار الموضوع على نطاقٍ واسع. طلبوا منه، بما له من اتصالات، التحرك للإفراج عن مرافق ليديا. حين استفهمت منه عن سبب ذلك شرح لي أنهم يعتقدون أن لديه المزيد وأنهم أرادوا أن يطلقوا سراحه حتى يصلوا إلى كل ما معه. لم يقتنعوا بأن هذا الأسود المتواضع يعلم قيمة ما سرقه، فأرادوا أن يدلهم على بقية ما يحوز، أو على المكان الذي سرق منه العقد. أشار وهو يقص عليَّ إلى أن المقبوض عليه التزم الصمت ولم ينبس ولو بكلمة واحدة طوال فترة احتجازه. أما ما استغربته أنا وتيجران، فكان ما حكاه الصائغ عن طلاقة الأسود في الإنجليزية ولكنته التي لا تشوبها شائبة.

بعد أن نجح زميلي في إقناع الشرطة بأن ما حدث سوء تفاهم وأن الصائغ الأرمني متنازل عن بلاغه، تم الإفراج عن الشاب الأسود وإعادة قطعة المجوهرات له. تبعه تيجران حتى وصل إلى الفندق. ترك أرمنيين يراقبان مدخل الفندق مع تعليمات بمتابعة المشتبه فيه حال خروجه من جديد. بعد أن اطمأن ساركسيان للترتيبات قرر أن يعود أدراجه لعرض الموضوع وما صاحبه من رغبة زعماء الأرمن على السيد «سي». مطلبهم الأساسي كان أن يتم، بهدوء، مصادرة ما سيجدون من مجوهرات مَن يطلقون عليه السفاح الأعظم لصالح الحركة الوطنية

الأرمنية. رأوا في ذلك تعويضًا بخسًا عن الإجرام الذي حلّ بهم.

ولأن اليوم لم يكتفِ بمناحيه التي تكاثرت، قاطع حديثه دخول الساعي علينا مادًا يده بظرفٍ أعلنني أن خادم فندق الغرب الملكي العظيم قد تركه لي. ما إن رأيته حتى تعرفت على خط كاتبته. فتحته وفضضت الرسالة التي بداخله وقرأتها على مسامع زميلي الأرمني:

«سيدني، لا أدري لمَ أثق بك ولكني أظن أنني ورزق في مشكلة. إن لم تكن قد وصلتك أخبار ما دار هذا الصباح فبالتأكيد ستصلك قريبًا بحكم عملك. أؤكد لك أني لم أسرق شيئًا وأن المجوهرات ملكي. الأفضل لي الآن أن أختفي عن الأعين. حاول أن تحل المشكلة التي لا دخل لي بها. أنت جزء من الحكومة البريطانية وتستطيع ذلك دون عناء. لا أريدك أن تظن أنني أهددك ولكن إن لم تحل هذا الموضوع فسأذهب للصحافة بأسرار كثيرة بالتأكيد تفضلون أن تظل خافية.. ليديا»

حين سمع الأرمني ما بالرسالة أخبرني بأنه على ما يبدو قد تهور وقت الإفراج عن الرجل الأسود فأخبره بأن الأفضل له أن يدله على مكان المجوهرات لأنها حق للشعب الأرمني. أقر بأنه تسرع وأن ذلك في الأغلب ما دفع ليديا إلى توجيه رسالتها إليّ. لكنه عاد يطمئنني بأننا سنعثر عليه، إذ كيف لأسود الوجه مثله أن يختفي في لندن البيضاء. كان واثقًا أنهما لن يستطيعا الإفلات من مراقبة الرجلين الأرمنيين اللذين تركهما أمام الفندق. كان بي شك أن تلويح ليديا بالاختفاء ربما تهديد أجوف فصحبت ساركسيان إلى الفندق. تحدثنا مع الأرمنيين قبل الدخول فأكدا أن الشاب الأسود لم يغادر المكان. حين سألنا موظف استقبال الفندق عن ليديا فاجأنا بأنها غادرت على عجالة قبل حلول المساء. نظرنا لبعضنا في دهشة وقد أدركنا الغموض الذي أصبح يسيطر على الموقف. من ناحية يؤكد موظف الفندق مغادرة ليديا، ومن الأخرى يقسم مَن تركهما تيجران أن الشاب الأسود لم يخرج من الباب. لم يكن بأيدينا الكثير لنفعله خاصة أننا قررنا ألا نشرك الشرطة في الموضوع من جديد. افترقنا على اتفاق أن نلتقي صباح الغد للبدء في

رحلة البحث عن الهاربَين.

ما لم أفهمه حتى الآن، هو لماذا ترك زميلي الأرمني العقد لمَن أسمته ليديا رزق في خطابها؟ بسؤاله عجز تيجران عن التفسير وهو يخبط رأسه لائمًا نفسه. ثم عاد مبرزًا أنه أراد أن يعطي الرجل إحساسًا بالطمأنينة الكاذبة. أكد أنه هدده أن اتصالاته في دوائر الحكومة قوية وأنه لن يتركه وسينغص عيشته إذا لم ينصع لطلبه.

الآن اختفت ليديا وليست بي قدرة على عمل شيء سوى انتظار اتصالها بي من جديد. سيكون عليّ ترقب رسالة جديدة ممَّن لم تمل كتابة الرسائل لعقود طويلة.

12

القسطنطينية 2 يناير 1876



هنري العزيز..

عام 1875 هو بلا شك عام الفقد والأحزان. هو ذلك برغم بدايته المبشرة والتي لم تنبئنا بالخسائر التي ستنال منَّا فيه. في بدايتها طرب القصر بصوت بكاء الصغيرة حواء وهي تعلن عن وجودها. تخطت نازلي سريعًا صدمة أن المولود ليس ذكرًا واختارت أن تسميها باسم أول امرأة في الكون. اختيارها للاسم لم يكن خاليًا من اعتبارات رمزيته. أسرَّت إليَّ بأنها عزمت على أن تكون الأميرة الصغيرة في يومٍ من الأيام المرأة الأولى في عصرها. ستربيها على أن تكون ذات بصمة وأثر في زمانها. اعتقدت للوهلة الأولى أن خليل باشا سيتجاهل الصغيرة أو على أقل تقدير لن يهتم بها، ولكنه أحبها وداوم على غير عادة رجال زمنه على حملها واحتضانها. كلما نظرت إليه حاملًا حواء على ذراعيه، في زياراته التي تكاثرت إلى الحرملك، تصورته جدها! ما زالت بي تلك المعارضة لفارق السن بينه وبين نازلي، نوع من الرفض الذي لا حق لي فيه.

حواء كانت ذات ابتسامة آسرة حين عرف وجهها التبسم. أحببت كيف كانت ترتاح لي فتهدأ لما أحملها وقد استعصى بكاؤها على مربيتها. أسعدني همس نازلي في أذن الوليدة وهي تهدهدها بأني خالتها ليديا. أدمنت مناغاتي لها طوال ساعات استيقاظها. لم أبالِ بسخرية أمها من تعلقي بحواء حتى إنها اقترحت أن نصرف المربيات اللواتي جعلت وجودهن لا ضرورة له. لم أترك لهن دورًا يلعبنه، فأنا مَن أقوم بكل ما

تحتاجه الرضيعة طوال اليوم وحتى أفارقها ليلًا حين تخلد إلى النوم.

آنستني حواء فأنستني ضراوة أقداري. ولكن القدر كان يخبئ في طياته مزيدًا من غلظته. استيقظنا على صريخ وعويل الصغيرة في يومٍ غطت سماءه السحب الداكنة. تشنج وجهها الذي اعتدناه صبوحًا فلم ينقطع بكاؤها. اختفى صفاء وبياض عينيها وانقلب اصفرارًا شديدًا. استدعى الباشا كبار أطباء القسطنطينية فأحاطوا بها يحاولون تشخيص الحالة. رفضت تصديق ما رأيته على وجوههم من يأسٍ واستسلام. تفاءلت لما بدأ صراخها في الخفوت. لم أكن أدري أنها اختارت صمتًا أبديًا. انتهى ذلك اليوم المشئوم بصرخة مكتومة صدرت من صدر نازلي والأطباء المهرة يعلنونها خبر رحيل وليدتها بلا أمل في عودة. ستة أشهر قصار وغرُبت شمس حواء. رحلت الملاك الصغيرة وأخذت معها فرحة لم نرتشف ما يكفينا من عذوبتها.

لا أعرف إن كانت بي مقدرة على وصف حال نازلي من بعد موت حواء. احتواها صمت موحش تخللته دموع مستديمة على وجنتيها. كدت ومَن حولها ننسى صوتها وهي لا تجيب تساؤلاتنا سوى بإيماءة حينًا وبهزة رأس رافضة في الأغلب. حاوطت عينيها هالات سوداء من عدم النوم الذي جافاها أيامًا وليالي. ثم يلي ذلك أيام ممتدة لا تستيقظ فيها وتستسلم لنومٍ بلا انقطاع، هاربة من التعاسة التي رفصت سعادتها وحلّت مكانها. كم أبكتني رؤيتها وهي تعقد ذراعيها حول صدرها وكأنها حاملة رضيعتها، أو حين تتحسس بطنها كما كانت تفعل وحواء بعد جنين في رحمها. لم تكن نازلي وحدها التي سيطرت عليها الكآبة والحزن، إذ علا وجه خليل باشا نظرات انكسار غير معهودة وتبخرت بشاشته.

ولأنه عام الحزن والفقد كما قلت لك يا هنري، فقد أبت السنة الكئيبة أن تغادرنا ببؤسها دون أن تصيبنا بسهم جديد يدمعنا. في أول أسبوع من ديسمبر ونحن بالقصر الذي عمه الصمت من فرط أحزان ساكنيه، جاءنا مرسال من سراي الأمير مصطفى بهجت لينبئنا بفجيعة جديدة.

مات أبو نازلي دون مقدمات، وغادر فيما يبدو ليلحق بالملاك التي سبقته إلى السماء. أبى الدهر إلا أن يتكالب عليها فسلب منها لبنة مستقبلها وقلعة ماضيها في عام واحد. راحت صغيرتها وتبعها كبيرها دون تأخير. هذه المرة لم تكتم صيحتها ولم توارِ، في إباء الأميرات، فجيعتها فأخذت تولول مثل نساء العوام طالبة من القدر أن يكف يده عنها.

من كم الغم والنكد المحيطين بي بدأت من جديد أجتر ذكريات حزني. استرجعت مرارة اضطراري دخول ما كانوا يطلقون عليه الملاذ. دلتني عليه الداية التي أرسلني إليها ألبرت حين استجمعت شجاعتي وطرقت بابها. يومها أحسنت الاستماع إلى حكايتي ووجدت فيها طيبة لم أنتظرها. بعدما انتهيت أشارت عليّ بأن أذهب للملاذ بدلًا من التخلص من القابع بداخلي والذي أصبح ممسكًا بأوتار فؤادي. قالت لي إنها لا تظن أنني سأقوى على التخلص من جنيني، وإن بعض سيدات الأثرياء من محبي الخير أقمن الملاذ لاستقبال أمثالي. كررت قولها إنها تخاف عليّ إن أجهضت أنني لن تكون بي رغبة للاستمرار في العيش. قالت لي إن بها خبرة وقدرة على تقدير مَن سيستطيع تحمل مثل هذا الفقد العظيم ومَن سيصيبه الوهن من بعده فييأس حد إنهاء حياته.

هذا الملاذ كان بابًا آخر وقفت أمامه مكسورة وأنا أتوسل أن يقبلوا استجارتي بهم. قابلتني الرئيسة ولم تُخفِ ازدراءها وهي تنظر إلى بطني الذي كان قد بدأ التكور. لم تدعُني إلى الجلوس قبل أن تملي عليّ شروط قبولهم لي. سيوفرون لي رعاية وطعامًا حتى يحين وقت ولادتي، وفي مقابل ذلك سأقوم بأشغال يدوية يبيعون منتجاتها في الأسواق حتى يتمكنوا من الصرف على البيت المعد لإيواء أمثالي من الخاطئات. شرطهم الثاني كان التزامي بالمغادرة وحيدة بعد شهر على الأكثر من وضع المولود. سيتوجب عليّ ترك رضيعي الذي سيعرضونه للتبني. ستتبناه، كما قالت، أسرة مسيحية طيبة تستطيع رعايته وتدفع عنه عار أنه لقيط. وجدوا في شروطهم ما يجعلهم يظنون أنهم يرضون

الرب ويكفرون عن سيئات الساقطات. لم يكن لديَّ بديل سوى أن أوافق على كل ما اشترطت. قبل أن تومئ لي بالدخول زادت أنه سيكون عليَّ حضور دروس القس اليومية، وأن لا يفوتني قداس الآحاد مهما كان السبب وإلا سيكون مآلي الطرد من جنة الملاذ.

تشابهت الأيام في ذلك المكان الحزين. كنا خمس بنات أو ساقطات كما كانت تنطق نظرات السيدة الرئيسة. خمس بنات صغيرات قصتهن واحدة؛ أحببن فأعطين دون تفكير وحين وقعت الواقعة اختفى مَن واقعوهن. من وسط يأسي، وقبل موعد ولادتي بحوالي شهرين، قررت أن أرسل رسالة إلى ألبرت. أحسنت كتابتها وبدأتها بتذكيره بحبنا وأكدت أني ما زلت على العهد. خففت عنه بأن قلت له إني متفهمة أسبابه وإن توسلت إليه أن يعفو عمَّن في رحمي إن لم يجد بنفسه قدرة أن يعفو عني. بعثتها ودعوته فيها ليزورني آمله أن يتعاطف مع حالي وأن تشتعل جذوة محبتي في قلبه من جديد متى رأى هواني. حين أرسلتها تأرجحت مشاعري ما بين يقين بأنه لن يعير رسالتي اهتمامًا، وتشوقٍ إلى أن أراه من جديد برغم تخليه عني. لم أكن قد تغلبت على ما بي له من عشق.

خفق قلبي، وأنا أركض للقياه، يوم نادت عليَّ الرئيسة وأخبرتني بأن هناك مَن حضر لرؤيتي. لم أتعرف عليه وقد أخفى وجهه بقبعةٍ أحسن خفضها على وجهه، وعباءة تلفَّع بها حتى ذقنه. لم يكن يريد لأحدٍ من الملاذ أن يتعرف على شخصه. أذكر الكلمات القليلة التي تبادلناها أثناء الثواني التي استغرقها زمن لقائنا.

- لماذا لم تتخلصي منه كما طلبت؟

- لم أستطع! أحبك.. ما في رحمي صنيعة حبنا، أرجوك دعني أحتفظ به.

حينذاك قتلني بقوله:

- وما أدراني أنه لي.. ما أدراني أنكِ كنتِ لي وحدي؟

وكأنه أتى يومها خصيصًا ليطعنني بكلماته تلك. غادرني فظللت من بعد ذهابه مذهولة حتى مادت بي الأرض حيث وقفت ولم أشعر بنفسي إلا في اليوم التالي وزميلاتي يتناوبن على تمريضي. من فرط ما حلّ بي بدأت آلام الولادة مساء ذلك اليوم قبل شهرين من الميعاد الذي حددته الداية. أذكر جيدًا شحوب وجهها حين بدأت آلام المخاض تتزايد وصرخاتي تتعالى. تغلب الرعب على وجهها والدماء تواصل اندفاعها من بين ساقي. أمسكت يدي وهي تدعوني لأن أواصل الحزق كي ينزل مَن تسارعت طرقاته على باب الخروج إلى الحياة. أظن أنني في لحظةٍ معينةٍ أغشي عليَّ من جديد. لكني هذه المرة أفقت على أبدع إحساس خالجني طوال حياتي.. إحساس ملمس جسدك الصغير يا هنري وهو بين أحضاني.

أحبك وسأظل أحبك حتى آخر أنفاسي.

المخلصة لك

ليديا

13

باريس 15 يونيو 1877

هنري العزيز..

منذ وصولنا إلى باريس، بعد تولي خليل باشا سفارة الباب العالي في فرنسا، وأنا أود أن أكتب إليك واصفة مدينة النور، أو كما يسمونها مركز العالم الحديث. احترت في أفضل طريقة أنقل لك بها ما تراه عيناي في هذه المدينة العامرة بالحياة. دائمًا ما وثقت في موهبتي في الكتابة لكني تمهلت هذه المرة لأني أردت أن يكون ما أكتبه بلا شائبة. هذا الأسبوع انتهت حيرتي بعد أن شاهدت عرضًا أول للوحة اسمها «شارع باريسي في يوم ممطر». وجدت أن ريشة مبدعها صاغت كل المشاعر التي تخالجني يومًا بعد يوم منذ انتقالنا إلى هنا.

اللوحة تعبير عبقري عن باريس التي أعاد بناءها البارون جورج هاوسمان بتعليمات وأوامر نابليون الثالث في العقد الأخير. في مقدمة المشهد تجد رجلًا تتأبط امرأته ذراعه وهو يحمل شمسية تحميهما من المطر. من الواضح أنهما من البرجوازية حيث يرتديان آخر صيحات الموضة الحالية. هي ترتدي قبعة وفستانًا بنيًا فوقه معطف مبطن بالفرو، في حين يرتدي هو معطفًا تحته سترة رمادية وقميص «مُنشي» تتوسط رقبته ربطة عنق على لون قبعته العالية. تعمد الفنان أن تكون الشخصيتان اللتان تتصدران المشهد بهما نوع من التشوش وكأنه يرمي إلى أن البرجوازيين لا يمثلون سوى أقلية من المجتمع الباريسي، على عكس ما يتصور بقية العالم. الفنان كاليبوت صاحب اللوحة أراد أن تشمل جميع أنماط المجتمع، فرسم في الخلفية شخصيات أكثر وضوحًا من الطبقات الأكثر فقرًا مثل الخادمة الواقفة على باب إحدى البنايات، وعامل البناء الذي يحمل سلمًا في طريقه إلى

عمله. المشهد كله في أحد أحياء باريس الجديدة التي أشرف على تطويرها هاوسمان. حي تُصدِّر باريس صورته عنوانًا لحداثتها في حين أنه في الحقيقة لا يقدر على سكناه أو التمتع بجماله سوى قلة قليلة من أبنائها في وقت يرزح بقيتهم تحت ويلات فقر مدقع. تسمَّرت يوم رأيت هذه اللوحة وأنا حائرة في جدوى اختراع آلات التصوير ونحن يعيش بيننا أمثال كاليبوت من أصحاب موهبة نقش الصورة بتفاصيلها بأيديهم وريشتهم دون حاجة إلى آلات مساعدة تنقل صورة جامدة. أظن أنه نجح، بشيء من السخرية، في التعبير عن أن المدينة ليست بشوارعها الحديثة الواسعة ولا معمارها المتفرد كما يدعون. عبر من خلال غيم مقصود غطى اللوحة عن نوع من الغربة يستشعرها باريسيون كثيرون. غربة وغرابة حداثة فرضها عليهم إمبراطورهم الذي عاونهم بسمارك على خلعه. تُرى كم من إمبراطور سيحذو حذوه راغبًا في تخليد اسمه لينتهي مخلوعًا مثله؟

أتدري ما أجمل ما في هذه المدينة؟ أن لها روحًا واحدة وعدة قلوب كل منها له نبض مميز. روحها تملأ تلك الحواري الضيقة التي تحتضن مونمارتر وتحيط بالنوتردام وتنعشك وأنت تسير على ضفاف السين، حيث الصراع ما زال دائرًا بين عراقتها ويد الحداثة التي تأبى إلا أن تطالها. أما قلوبها فتسمع دقاتها، حين يحل المساء، في النقاشات الدائرة على مقاهيها أو في معارض فنانيها الذين يداومون على مفاجأة العالم بإبداعاتهم وكتابات أدبائها الذين يصرون على ريادة البشرية بأفكارهم، ومن رحم كل هذا الإلهام الذي تستنشقه مدينة النور أبى أهلها إلا أن يخلقوا إبداعهم الأعظم في صورة صالوناتها، تلك اللآلئ التي تتوهج بها لياليها.

أرجو يا هنري، حين تكبر، ألا تحاكي أغلب الذكور الإنجليز الذين يتحاشون إناثهم، كلما استطاعوا، بالتسلل إلى ما يسمونه بنوادي الرجال. أما رجال فرنسا فعلى نقيض ذلك، إذ لا يتألقون إلا في وجود سيداتهم. لا يخافون من منافستهن فتركوا لهن قيادة وإدارة تلك

المنابر التي تشع وتصدر ضياءً ثقافيًا وحضاريًا لا مثيل له. صالوناتهم تلك أهم سماتها أن تتصدرها سيدة من الأغنياء فيرتبط بها اسمها ويتجمع حولها صفوة الفن والأدب والموسيقى ويتطلع ذوو الحظوة لدعوة حضورها. في هذه التجمعات ولدت أفكار ثورات وتمخضت من خلالها مبادئ ما نعاصر من تغيرات في عصرنا. محافل تناقش فيها هوجو وبودلير وبلزاك ودوماس وموپاسان وغيرهم من الأدباء. جلسات حضرها ويحضرها أمثال مونيه وسيزان وديجاس ومانيه يستمعون لنقد لوحاتهم ومدحها فيمتلئون المرة بعد الأخرى بالقدرة والرغبة على مزيد ممّا يذهلون به الناس.

هنا يا هنري وجدت نازلي نفسها فراشة تطير نحو النور الذي تشعه صالونات باريس. أصبحنا ضيوفًا مستديمين فيها، وهي ترحب بأميرة آتية من الشرق تصبو إلى الاستنارة. انبهرت نازلي بهم ولم يعُد لها حديث سوى عمّا نختبره من مناقشات تثري الأرواح ونحن نستمتع بزيارتنا إلى تلك التجمعات. تحدثني دائمًا عن أمنية تملكتها أن تستطيع يومًا أن يكون لها صالونها في بلادها حين ترجع. تتخيل نفسها وهي مستضيفة أعلام الأدب والفن والسياسة في مجلسها متألقين في أحاديثهم ومناقشاتهم ليدفعوا الأمة إلى مصاف الرقي والتحضر المستحق.

وهنا أيضًا وتحديدًا في صالون باريس الأهم، صالون «ماري كلارك موهل» في سان چيرمان، بدأت نهاية مغامرتنا الباريسية. في السنوات الأخيرة استطاعت الإنجليزية المتزوجة من مستشرق ألماني، أن تجعل منتداها الأشهر في باريس. طوال الشهر الماضي داومت نازلي، وأنا معها، على حضور صالونها في أمسيات الأربعاء والجمعة. قبل أسبوعين كان التجمع الذي تداعت الأمور من بعده. في بداية اللقاء أطربتنا هورتنس شنايدر الأوبرالية الأشهر بصوتها القوي الذي أظنه قادرًا على صدع الجبال. هورتنس لها شهرة موازية لقدراتها الغنائية، إذ تشتهر بأنها دفأت مضاجع عدة ملكيين، منهم قيصر روسيا وإدوارد

أمير ويلز. لم تكتفِ بأهل الغرب، فكانت ضيفة دائمة في فراش إسماعيل، عم نازلي، كلما زار باريس. الصالونات كما هي منارات ثقافة وفنون، هي أيضًا مصدر الشائعات التي تلاحق مشاهير باريس. لا توجد هنا لوحة دون قصة مثيرة عمًا احتوت، ولا نثر أو رواية دون فضيحة صغيرة هي مبعث إلهامه.

في ذلك اللقاء تطرق النقاش إلى المدرسة الواقعية في الرسم التي بدأت تتبوأ المكانة الأهم هذه الآونة. وحين تُذكر الواقعية لا بد أن يقفز إلى مقدمة الحديث رائدها جوستاف كوربيه. فنان رفض رومانسية سابقيه، فأصر على ألا ينقل بريشته سوى ما تراه عيناه. تحدى تقاليد العصر لما بدأ في تصوير الفلاحين والعمال في لوحاته تعبيرًا عن انحيازاته السياسية والتي تسببت نهاية الأمر في سجنه بداية السبعينيات.

لكن لم تكن قصة حياته أو انحيازاته السياسية ما أثار التبعات التي عشناها وانتهت بنازلي إلى ما هي فيه الآن. من وسط الحديث الدائر ذلك اليوم اندفع أحد الحضور ساخرًا ليشير إلى أنه يرى أن أهم لوحاته على الإطلاق المسماة «أصل العالم». تعالت ضحكات الحضور وهم يلمزون بأن كوربيه أبدع في تصوير أهم جزء في جسد الباليرينا الشهيرة كونستانس كوينو. لا خجل في تلك الصالونات يا هنري، فكل حديث مباح. تصورت حينذاك أنه قد رسمها عارية الصدر كما اعتاد معاصروه. لم ينتهِ الحديث عند هذا، فمع توالي تناول الحاضرين أكواب النبيذ الفرنسي الفاخر، انفكّت عقد ألسنتهم، ليُفصح أحدهم أن الباشا العثماني، عشيق الراقصة والذي طلب من كوربيه اللوحة قبل عشر سنوات، عاد إلى باريس سفيرًا للباب العالي. حين وقع ما قالوه على مسامعي دعوت أن يكون قد فات نازلي، لكن دعواتي بالطبع راحت هباء. غادرنا يومها وقد غلبنا وجوم من هول ما سمعنا.

في الأيام التالية أصرت نازلي على البحث عن تلك اللوحة في أروقة باريس. كنا قد عرفنا أن الباشا قد باعها مع بقية مقتنياته حين شارف

على الإفلاس أثناء إقامته السابقة بمدينة النور قبل عشر سنوات. برغم أن اللوحة وقصتها وأحداثها كلها دارت قبل اقتران الباشا بصديقتي إلا أنها كانت تصر على كشف تفاصيلها. بالسؤال والبحث، ومن متجر إلى آخر، وصلنا في النهاية إلى تاجر احتفظ بها في مخزنه. يعف لساني عن وصف السفالة والحقارة التي حظّت عيناي عليها وهو يكشف لنا عن اللوحة. لا أظن أن سيدة من أصل طيب تستطيع وصف ما جرؤ على رسمه كوربيه. ومع هذا لا أملك إلا أن أتفق معه في أن محتواها الصادم يتناغم مع عنوانها. ولا أستطيع أيضًا أن أمحو من ذاكرتي البياض الذي اكتسى به وجه نازلي وهي إلى جانبي، ولا الخجل الأقرب للعار الذي أصبح يصاحبها منذ شاهدنا «أصل العالم» ذلك اليوم.

أسرّت لي بما دار بينها وبين خليل باشا لما واجهته بفعلته. تملكه الصلف والغرور وهو يخبرها بأنه لم يأتِ بمشين كما تدعي، وأنه يجب عليها أن تكون أكثر غربية وتقدمية في أفكارها. لم يذعن أو يهادن فيحاول أن يراضيها. من وسط عناده أعلنها أنه ما زال على علاقة بالراقصة وأنه لا يجد في ذلك ما يسيء إليها. حاضرها في أن المجتمع الفرنسي، التي تفيض بالإعجاب به، يتقبل وجود المحظية إلى جانب الزوجة دون تحفظ أو اعتراض. أكثر ما جرحها كان تطاوله حين نعتها بالازدواجية مسهبًا في أنها تقبلت أن والدها الراحل احتفظ وعاشر الجواري في نفس البيت الذي عاشت فيه أمها، بينما هي تنكر عليه أن يكون له عشيقة واحدة. سخر منها ومن رجعيتها فانتفضت صارخة وطلبت منه أن ينفصلا. أوغر جرحها بسرعة استجابته لطلبها وكأنه كان مبيتًا للنية فطلقها.

بي حيرة شديدة يا هنري، كنت قد عزمت على العودة إلى بريطانيا بعد أن طال مكوثي إلى جانب نازلي طوال السنوات الماضية. وجدت أن الأوان قد آن لأعود إلى بلدي، وأن أعاود حياتي وسط بني وطني بعد أن اشتدت عليّ الغربة. لكن باعتبار ما تمر به صديقتي الآن أجد من الصعب أن أهجرها وبها ما بها من جروح. سأؤجل قراري في العودة



بعض الوقت وأمكث إلى جوار مَن تحتاجني الآن. سنرتحل آخر هذا الأسبوع إلى مارسيليا لنستقل المركب الذي سيحملنا إلى البلد الذي يتوق إليه قلب نازلي ويخفق بضراوة كلما نُطق اسمه على مسامعها. سنذهب إلى مصر، حيث جذورها ومُلك أجدادها.

سأتركك الآن، وسأكتب إليك متى استقررنا في المحروسة كما يسمونها.

المخلصة لك

ليديا





14

مفكرة سيدني بويد

6فبراير1914

ذُهلت من مفاجأة أن هنري هو ابن ليديا. أعدت قراءة تلك الرسالة عدَّة مرات من فرط دهشتي. كنت موقنًا قبل اعترافها أن مَن تُراسله حبيب أو عشيق هجرها. نجحت بعد فترة في أن أوقف تفكيري في ذلك الموضوع. ربما ساعدني على تخطي ذلك أن التصق بفكري هاجس حول ليديا ومكان اختفائها عصّى عليّ النوم طوال الليل وجعله متقطعًا. مع أول شعاع للشمس قفزت من سريري وتوجهت إلى المكتب الذي أحتفظ فيه بخطاباتها. أردت التأكد من الخيط الذي أظنه سيرشدني إلى مكانها. قرأت بإمعانٍ شديدٍ أول رسالة من رسائلها. وجدت فيها غايتي فأصبحت بي ثقة أني على أول طريق العثور عليها. تحكمت في رغبتي العارمة في النزول حتى دقت الساعة الثامنة صباحًا فبادرت بالخروج.

مشواري حتى فندق الغرب الملكي العظيم استغرق حوالي نصف ساعة. حانت لحظة اختبار نظريتي التي أكاد أقسم إنها صحيحة. توجهت إلى موظف الاستقبال كما خططت، وبثبات وثقة العارف سألته:

- هل من الممكن أن تستدعي روزماري رئيسة الخادمات؟

فضّلت أن يكون هذا مدخلي عن أن أسأله إن كان هناك مَن تعمل بالفندق بهذا الاسم. راهنت على صدق حدسي وأردت أن أتحاشى مراوغة زملائها إن ظنوا أني أتحرى عنها أو غير متأكد من أنها بالمكان. هدأت أنفاسي وتباطأت ضربات قلبي بعد أن أرهقني تسارعها، حين رد

عليَّ قائلًا:

- سأرسل في طلبها.

ارتحت أن روزماري التي ذكرتها ليديا في خطابها ما زالت تعمل بالفندق كما توقعت. بدأت أحضر ما سوف أقوله لها من أجل أن أجعلها تدلني على مَن أبحث عنها ومرافقها الأسود. لم يطل انتظاري، إذ سرعان ما وجدت سيدة خمسينية تتقدم نحوي. قصيرة القامة نوعًا ونحيفة، وجهها أبيض بوجنتين حمراوين. غلب على شعرها الشيب وإن تخللته خصلات تعلن أنها في صغرها كانت شقراء. توقفت على بُعد ثلاثة أو أربعة أقدام مني وقد شخصت في وجهي.

- اسمي سيدني بويد وأعرف أنكِ تعلمين مكان ليديا وأريدكِ أن تأخذيني إليها.

استمرت نظرتها المتفحصة مصوبة نحوي دون أي تغير في تعبيرات وجهها وكأني لم أنطق ولا هي سمعت. استمر صمتها دقائق، ثم مطت شفتيها وهزت رأسها قبل أن تشيح بوجهها عني وتستدير لتبدأ في المشي في الاتجاه الذي أتت منه. لم أدرِ كيف أتصرف بعد أن تركتني واقفًا في وسط بهو الفندق دون رد فعل لما قلته. هل أناديها أم أتبعها أم أرجع من حيث أتيت؟ في اللحظة التي قررت أن ألحق بها وأستوقفها استدارت هي نحوي وأومأت لي أن أتبعها.

وأنا سائر خلفها بدأت نشوة النجاح تخالجني. بداية الخيط كانت حين تنبهت إلى نزول ليديا في نفس الفندق الذي عملت فيه قبل مغادرتها إنجلترا. لا أؤمن بالمصادفات؛ لذلك حاولت أن أجد سببًا لاختيارها ذلك المكان دون غيره. قد يؤول البعض هذا لأنها لا تعرف الكثير عن لندن، خاصة مع طول اغترابها، ومن ثم فاختيارها منطقي. أو لعلها أرادت العودة كضيفةٍ تُخدَم في مكانٍ كانت تَخدِم فيه. حين اختفت ليديا حاولت تحليل كيف استطاع مرافقها الخروج دون أن يلحظه مَن كانا يراقبانه. ثم تذكرت خطابها الأول الذي يصف وصولها للندن والتحاقها

بالعمل كخادمة غرف بالفندق. بعد عدة قراءات لرسالتها أيقنت أنها بالتأكيد خرجت من نفس الباب الذي دخلت منه قبل سنين بعيدة؛ باب المستخدمين. ولكنها كي تفعل ذلك لا بد وأن تجد معاونة من أحد من العاملين بالمكان. احترت قليلًا وشعرت بأن نظريتي بها خطأ لما تذكرت تأكيد موظف الاستقبال يوم هروبها أنها خرجت من الباب الرئيسي ومعها أمتعتها دون مرافق. استرجعت أيضًا أنها أوردت اسم شريكة غرفتها إبان عملها بالفندق في إحدى رسائلها. قررت أن أتحرى إن كانت روزماري ما زالت موجودة. فإذا كانت إجابة سؤالي عنها اليوم: «لا أحد بهذا الاسم يعمل هنا»، كنت سأطلب مقابلة أقدم العاملين عوضًا عنها.

تصورت أن مَن أسير خلفها تقودني إلى مكان تستطيع التحدث معي فيه دون أن نلفت الأنظار. أو ربما تريد أن تأخذني إلى بيتها حيث أخفت ليديا، لكني وجدتها تسير بي في دهاليز الفندق الخلفية قبل أن تفتح بابًا يؤدي إلى ممر على جنباته غرف متراصة أدركت على الفور أنها غرف العاملين. توقفت أمام الغرفة التي بنهايته ودقت عدة دقات بنسقٍ مميز. ثوانٍ قليلة فتح بعدها مرافق ليديا الأسود الباب. مرة أخرى أومأت روزماري إليّ برأسها داعية إياي لأن أدخل.

ابتسامة واسعة غطت وجه ليديا حين وجدتني أمامها في الغرفة الصغيرة.

- حكيت لروزماري عنك وقلت لها إني أثق بك وإني سأبعث في طلبك لتقابلني لما تهدأ الأمور. بالتأكيد اعتقدت أني استدعيتك فقادتك إليّ.

أصرت أن تعرف كيف فطنت إلى مخبئها. شرحت لها كيف تتبعت الخيوط التي في رسائلها حتى قادتني إلى صديقتها الأيرلندية. كنت معتدًا بصدق حدسي وتحليلاتي وأنا أطلعها على ربطي ما حوته خطاباتها، وتوقعي أن تكون الأيرلندية العجوز قد عاونتها على الاختفاء. حين انتهيت من شرحي توالت أسئلتي لها عمًا لم أستطع

تفسيره في خطوات مغادرتها الفندق والعودة له من جديد. بابتسامة عريضة وكثير من التفاخر سردت لي تفاصيل هروبها:

- كنت متأكدة أنهم سينتظرون رزق بالخارج ليراقبوا تحركاته فتعمدنا ألا يخرج من الباب الرئيسي وأن ينتقل إلى هنا عبر ممرات الخدمة. أما أنا فقد دفعت حساب إقامتي وركبت مركبة ومعي الأمتعة ودرت بها في أرجاء بادينجتون لأكثر من ساعة قبل أن أعود. دخلت الفندق من جديد ولكن هذه المرة من الباب الجانبي. نفس الباب الذي دخلت منه أول مرة وصلت إلى لندن.

لم أتمالك الابتسام وهي تؤكد حدسي بعودتها إلى الفندق من الباب الذي ذكرته في أول خطاباتها. أشارت ليديا إلى أن أقترب منها، وكما بلقائنا الأول احتضنت وجهي بين يديها وأطالت النظر في عينَي قبل أن تدعُني إلى مقعدي بجوارها من جديد. شعرت بنوعٍ من التواصل معها ما زلت لا أجد له تفسيرًا. قطعت الصمت الذي خيَّم على جلستنا بقولي:

- احكِ لي من أين لك بالعقد؟ ولماذا أرسلتِ لهذا الصائغ بالذات؟

جلجلت ضحكتها وهي تقول:

- الصائغ صدفة بحتة. كل ما طلبته من رزق أن يعرض العقد في محل لا يحمل اسم يهودي؛ إذ إني لا أثق بهم. حين وجد اسم أرمني على لافتة المحل قرر أن يعرضه هناك بحكم تعاملنا مع الأرمن كثيرًا في مصر ومعرفتنا برقيهم وأمانتهم. للأسف لم ينتبه رزق لكون العقد هدية من السلطان عبد الحميد ولا للدم الذي بينه وبين الأرمن. لقد أطلقوا على فعلته بهم عبر السنين المذابح الحميدية. ثلاثمائة ألف أرمني أو أكثر قتلهم دون تمييز، لم يسلم منه عجوز أو طفل أو امرأة، ذبح كل مَن طالتهم يد زبانيته. فعل فعلته على مسمع ومرأى العالم كله فسكتوا عنه مراعاة لمصالحهم وأعطوا ظهورهم لشعب أسير يُفتك به. تصور

أن البعض في غربنا دافع عن السفاح وحاول أن يحسن من صورته مثل هيرتزل متزعم الصهيونية. عمومًا تفهمت لماذا رأى الأرمني الذي تدخل للإفراج عن رزق أن العقد من حقهم كتعويض لا يغني عمًّا أنزله بهم السلطان من أذى.

ثم شرعت تحكي لي كيف حصلت على العقد:

- هذا العقد هدية لي من نازلي. وهو ليس هدية بدون مناسبة، ولكنه بسبب عرفانها بجميل تدخلي لحمايتها من بطش عبد الحميد. بالتأكيد سمعت عن حركة تركيا الفتاة وكفاح أعضائها عبر عدة عقود من أجل إقرار دستور للدولة العثمانية وإصلاح حكم السلطان. لا أدري إن كنت تعلم أن أحد آباء هذه الحركة الثورية هو أبو نازلي الأمير مصطفى بهجت فاضل. لقد كان شجاعًا حد أنه كتب للسلطان عبد العزيز خطابًا مشهورًا يحثه فيه على إعمال العدل في حكمه. لم يخفْ من السلطان وقال كلمة حق في وجه الجبروت. أتذكر جزءًا من الخطاب من كثرة فخر نازلي به وإعادتها لمقاطع منه على مسامعي باستمرار: «خذ بيد الدولة فجدِّد شبابها، وامدد إليها الدستور تنشلها من الفوضى، هب الأمة دستورًا صحيح الجسم، رحيب الصدر، خصيب التربة، يتساوى أمامه المسلمون والمسيحيون في الحقوق والواجبات، ليسود الوئام».

أصبح بعينيها توهج وهي تسترسل في سردها:

- لذلك لما اشتد عود حركة تركيا الفتاة بداية هذا القرن وعادوا من جديد للحراك، كان من الطبيعي أن تكون نازلي من معضديهم وداعميهم الأقوياء. ساندتهم بالأموال وباتصالاتها ساعدت في نشر مطالبهم. ثم كان أن حضرت في باريس مؤتمرهم الأول قبل أكثر من عشر سنوات. لما عادت من المؤتمر إلى القاهرة جاءها استدعاء من الباب العالي بضرورة الحضور لمقابلة السلطان. صحبتها إلى القسطنطينية بعد ما لمسته من خوفها من بطش عبد الحميد جراء تأييدها لمعارضيه. في أول ليلة لنا هناك وقبل مقابلتها له طرأت لي

فكرة لحمايتها ووافقتني عليها. ذهبت في اليوم التالي لمقابلة السفير البريطاني السير نيكولاس أوكونور. قدَّمت له نفسي وأشرت دون تفاصيل لعملي مع مكتب الشئون الخارجية. ثم بدأت في شرح الوضع له والخطر الذي يحيط بحياة الأميرة. أسهبت أيضًا في شرح علاقة نازلي الوطيدة باللورد كرومر وكذلك كتشنر وغيرهم من البريطانيين في مصر. في نهاية اللقاء اتفقنا على أن يرافقها في زيارتها للسلطان مندوب من السفارة البريطانية كنوعٍ من إخطاره بأنها تحت حماية المملكة. وبالفعل تم ما خطَّطنا له ومرَّت الزيارة بسلام. بل إن السلطان أغدق عطاياه على نازلي إذ يبدو أنه قرر أن يستميلها إلى صفه بدلًا من أن يرهبها لترك معارضيه.

سكتت ليديا قليلًا ثم أكملت مبتسمة:

- من ضمن هداياه لها كان صندوق مليئًا بالمجوهرات أهدتني منه العقد وإسوارة مرصعين بالألماس ومدموغين بختم عبد الحميد.
صدقتني الآن أني لم أسرق وأن ما حاولت بيعه من ممتلكاتي؟ قل لي كيف سنحل هذا الموقف؟

أنهيت اللقاء عند هذا الحد مع وعدين مني لها: الأول أن أجد حلًا للمعضلة التي هي بها، والثاني ألا أبوح لأحد بمكانها لحين تحقيق الوعد الأول.

حين عدت إلى المكتب قررت أن أعكف على كتابة أول تقاريري عن أحد المرشحين لتولي حكم مصر. شغلتني ليديا وأحداثها طوال الأسبوع فلم أستطع التركيز من أجل إتمام المهمة الأساسية المسندة إليّ. كنت قد جمعت معلومات عن أول، وفي تقديري أضعف المرشحين، الأمير أحمد فؤاد ابن الخديوِ إسماعيل. توصيتي في نهاية ما كتبت كانت أنه لا يصلح للمنصب وبالذات في حال إعلان استقلال مصر عن الدولة العثمانية؛ إذ إنه في هذه الحالة يجب أن يكون الحاكم ذا تاريخ ناصع لا تشوبه شائبة. والأمير فؤاد له حادثة مشينة رجَّت أوساط

القاهرة نهاية القرن الماضي وقت حاول أخو زوجته آنذاك، الأميرة شويكار، قتله فأصابت الرصاصة عنقه. وقد أسفرت إصابته عن عاهة مستديمة جعلت صوته أجشَّ وخشنًا. بالبحث أيضًا وجدت أنه في السنتين الماضيتين كرَّس كل جهوده من أجل الفوز بعرش ألبانيا. لم يكن مهتمًّا بمصر وفضَّل أن يحكم البلد الذي أتى منه جده الأكبر محمد علي. لهذه الأسباب لم أجد أنه سيكون مناسبًا لما نبغاه ممَّن سنوليه عرش مصر. أحسنت كتابة توصيتي النهائية وراجعت التقرير عدة مرات قبل أن أسلمه لسكرتير السيد «سي».

في نهاية اليوم، وقبل أن أغادر إلى المنزل، وصلتني برقية من اللورد ألبرت هارفي يرحب بطلبي ويدعوني لقضاء اليوم معه في ضيعته ببرمنجهام بعد غدِ الأحد. في طريقي إلى بيتي قررت أن أمر على السيد موريسون صباح يوم غد.

15

القاهرة 5 نوفمبر 1878

هنري العزيز ..كيف حالك؟

لعلك تستغرب أني لا أفتتح رسائلي إليك بالسؤال والاطمئنان عليك. لأني أخجل من أن يتصدر خطاباتي لك هذا السؤال المتوقع. أخجل لأني تركتك باختياري وبقرار مني بأن أهرب ممَّا كنت سأواجهه من ازدراء لو أني تمسكت بك. أتحاشى محاولة الاطمئنان خوفًا من أن يكون ردك: وما همك بحالي؟ أو لماذا تسألين الآن وقد تركتيني رضيعًا دون تردد؟ أو ربما أتجنب سؤالًا فقدت حقي فيه يوم هجرتك باختياري. أعلم أن ما اقترفته هو أسوأ ما يمكن لأم أن تفعله، وأني بما أقدمت عليه لا أستحق الإحساس بعاطفة سامية كالأمومة. في قرارة نفسي أعلم جيدًا أنك لن تكون لي يومًا، ولكني مستمسكة بأملٍ واهنٍ أن أسعد، ولو عن بُعد، باطمئنان قلبي عليك فتبرد ناره جراء معرفة أنك بخير. أهرب من مرارة ما اقترفته باستمرار كتابتي لك حتى لو أنها حبيسة الحافظة الجلدية التي أرصها فيها. أحتفظ بقلة قليلة من الرسائل، إذ يصيبني في معظم الأحيان نوع من الجنون يدفعني إلى تمزيق ما كتبت فور الانتهاء من آخر سطوره. أتعرف أيضًا كيف أرضي ضميري تجاهك؟ أفعل ذلك في كل مرة أرسل رسالة مشفرة إلى لندن، فأعنى بأن أذكرهم بالبحث عنك ومشاركتي أخبارك متى عرفوا لك طريقًا. لا أمَل ولا أكِل من طلبي برغم أنهم لم يعلقوا على مطلبي يومًا في مراسلاتهم لي. تصلني منهم خطابات متفرقة كل آن وآخر أفهم من شفرتها ما يطلبون مني من معلومات محددة. برغم أني لم أخطرهم بمغادرتنا باريس، فوجئت برسالة عرفت طريقي في القاهرة. لم

يصرحوا بطلبات معينة هذه المرة، ولكن من بين سطورها شعرت بأنهم متحمسون لوجودي هنا. لاحظت هذه المرة تأكيدهم على أن دوري سيكون مهمًا جدًا من أجل مصالح بريطانيا العليا في الفترة القادمة. حقيقة لا أفهم ما يشيرون إليه، ولكنهم طلبوا مني أن أكثر من تقاريري حول أوضاع مصر وما يدور في أروقة أسرتها الحاكمة كلما استطعت. بي حيرة من اهتمامهم الزائد بهذا البلد، وإن كنت أثق في أنهم يخططون لأمر في المستقبل القريب.

خطاب لندن الممهور بتوقيع صديقتي المزعومة حمل لي حزنًا آخر. لقد فارقت أمي الحياة. اختلطت مشاعري عند قراءتي الخبر. بالتأكيد وجعني فراقها وأنا بعيدة عنها، ولكنني أيضًا تذكرت كيف لم تكن سندًا حقيقيًا لي. لم تكن الحائط الذي أرتكن إليه كما في الروايات الخالدة. سعدت لها أنها ذهبت إلى حيث أمضت معظم عمرها متطلعة للارتحال إليه. هي الآن في ملكوت الرب الذي كرَّست حياتها له وتناست في سبيل ذلك أنها أم وأن أبناءها احتاجوها ولم يجدوها. استأت أن لم يغمرني حزن شديد عليها، وإن صبر ت نفسي بأني فقدتها قبل عقد من الزمن وأنا أغادر برمنجهام. سنوات فرقتنا لم أسمع منها ولم تسمع عني. يبدو لي أني آخر حلقات سلالة من الأمهات السيئات، أو ربما تكون هذه لعنة عائلتي. هنا في القاهرة يا هنري اكتشفت أن كل العائلات مهما علا بها المقام تخفي أسرارًا وتحيط بها شائعات. بدءًا يجب أن أقول لك إن احتفاء الخديوِ إسماعيل بقدوم نازلي كان، كعهده في الاحتفاء، فوق العادة. لا أدري ما دوافعه وإن كنت أشك فيها. هل شجعته وفاة أبيها وطلاقها من خليل باشا، وبالتالي ابتعاد أشد منافسيه عنها، فتقدم الصفوف ليحتويها؟ فور وقوع الطلاق زارنا مندوبه في باريس حاملًا دعوته لها بأن تحضر إلى القاهرة لتكون، كما زعم، في كنف عمها. برغم توجسها منه وشكها في دوافعه قبلت نازلي الدعوة. تغلب شوقها للعودة لمصر على أي حرص واجب من مآربه، وإن قالت لي إنها ستجاريه، ولكنها ستظل حذرة ولن تنسى أبدًا ما فعله بأبيها. بمعرفتي بها أعرف أنها لن تهادن عمها، ولكنها في الوقت ذاته

تريد عودة إلى ما تربَّت على أنه بلدها.

منذ وصولنا لميناء الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، والاستقبال لا يمكن أن يوصف إلا بالملوكي. المفاجأة كانت عند وصولنا إلى العاصمة فوجدناه قد خصص لها قصرًا صغيرًا خلف سرايته بعابدين. «ڤيلا هنري» بشارع لاكومپاني هو البيت الذي نقيم فيه منذ حضورنا والذي تسلمت نازلي عقد ملكيته لحظة دخولها إليه. العجيب أن هذا القصر سُمِّي على اسم السير هنري لايارد الذي أقام فيه أثناء وجوده القصير بالقاهرة. أقول إن ذلك غريب لأن لايارد تعتبره نازلي أباها الروحي منذ توثقت علاقتهما إبان خدمته كسفير لبريطانيا لدى الباب العالي. لم أقابله لكنها طالما حكت عنه، وكيف أثر فيها بغزارة وتنوع علمه وتشجيعه لنزعاتها التحريرية. ترك لها مجموعة كبيرة من الكتب كلها آراء عن الليبرالية التي أصبح أغلب المثقفين يتشدقون بها ويمتدحونها ويرون فيها المسار الأمثل للعالم الجديد الذي نعيشه.

لكن المصادفة الأهم بالنسبة لي، أنني أقيم الآن في بيت يحمل اسمك يا حبيبي. هل أخبرتك من قبل لمَ اخترت لك هذا الاسم بالذات؟ اخترته لأن به معنى الشجاعة، ولأن كل مَن حملوه عبر التاريخ كانوا ملوكًا وأبطالًا. أظن أنني كنت في العاشرة من عمري حين لفت نظري شرح معناه في أحد الكتب التي أعطاها لي أبي. معناه بالچرمانية القديمة يا هنري حاكم الدار. وإن كنت يا حبيبي لم تأتِك الفرصة كي تكون حاكمًا لداري، فأنت بلا شك متربع وحدك على عرش قلبي. حين حملتك يوم ولادتك وجدت نفسي أناديك في سري بهنري. أعلم أن مَن تبنوك في الأغلب أطلقوا عليك اسمًا آخر، ولكني وإن لم أشرك أحدًا فيما سميتك، لا أتصورك سوى هنري.

هأنذا أشرد من جديد وأنا أكتب لك فأنتقل من موضوع إلى آخر دون رابط. عودة إلى إسماعيل ولمَ لا أثق في نواياه. هل من الطبيعي بعد سنين الصراع الذي دار بينه وبين الأمير مصطفى بهجت أن يتحول دون مقدمات إلى ذلك العم الحنون الذي يحمل هم ابنة أخيه؟ لقد مات

أبوها في الأغلب كمدًا ممّا قاساه على يد أخيه الذي لم يكتفِ بنفيه من مصر ومصادرة ممتلكاته. نعم عوضه بمبلغ كبير عن ممتلكاته ولكن نازلي تؤكد لي أن هذا التعويض لا يمثل إلا أقل القليل من قيمتها. إن حنوه الحالي لا يتناسب مع ما اشتهر به من ضراوة وقسوة في أمور الحكم سواء مع منافسيه أو مواليه. هذا أكثر ما يقلقني ويخيفني من محاولاته للاقتراب من نازلي.

لقد مر أكثر من العام على حادثة ما زالت أوساط القاهرة ترتعد وهي تهمس بتفاصيلها. قصة الخديوِ وسميه وصديقه الأقرب إسماعيل باشا المفتش. لم يكن فقط أقرب معاونيه وأهم وزرائه، بل كان أيضًا أخاه في الرضاعة. ثُروى القصة وراويها يتلفت خيفة من أن يُسمع فيكون مصيره كبطلها. يُقال إن إسماعيل قد انقلب على وزيره، وإن لم يحدد سببًا بعينه لهذا الانقلاب. تارة يُعزون ذلك لغيرةٍ من ثراءٍ أصابه المفتش، وأخرى لخوف الحاكم من أن يفضحه كاتم أسراره. يُقال إنه في أحد أيام الجمعة استدعاه لسراي عابدين واصطحبه من هناك، صحبة الصديق لصديقه، إلى سراي الجزيرة. حين وصلا تركه الخديوِ في البهو وصعد إلى مكتبه في الدور الثاني بعد أن أعطى ابنه حسن باشا تعليمات بمرافقة المفتش إلى المركب المنتظر على ضفاف النيل. يقولون إنهم اقتادوا الوزير المعزول عنوة إلى المركب بعد أن أخبروه بتعليمات الخديوِ بنفيه إلى السودان. يصفون كيف غلبه الرعب وهو يستنجد ويستجدي وهو الأعلم بما ينتظره من مصير. كان يوم الجمعة هذا آخر يوم شوهد فيه إسماعيل باشا المفتش. تتواتر القصص عن كيف قتله أحد الأغوات ما إن وطأت قدماه المركب المنتظر. تخيل يا هنري أنهم يدّعون، في إحدى الروايات، أنهم قتلوه ضغطًا على خصيتيه. أيُّ قسوةٍ وشراسةٍ أن يكون الموت خنقًا لا من عنقك ولكن من بين رجليك؟!

نميمة القاهرة هذه الأيام لا تتوقف عند هذه الحادثة. هناك رواية أخرى دائرة تتناول أنساب حكام مصر. الغريب أن مروجيها من أبناء

الأسرة الحاكمة، وإن كانوا من أبنائها الموجودين في الظل. مسموح لهم فقط بالاستمتاع بألقابهم وقصورهم وثرائهم دون أن يكون لهم دخل في شئون البلاد. يستخدمون هذه القصة كما يستخدم مثيلاتها مدَّعو الأحقية بالعرش في بريطانيا وغيرها من الممالك الأوربية. يدَّعون أن إبراهيم باشا، أبو إسماعيل، لم يكن ابن الوالي محمد علي، بل كان ابن زوجته أمينة هانم، أو ملكة النيل كما كانوا يطلقون عليها، من زيجتها الأولى. النافون للرواية يؤكدون أن زوجها الأول علي بك مات قبل الدخول بها. أما المتمسكون بصحتها فغرضهم الأوحد أن تكون سلالة إبراهيم باشا قد اغتصبت الحق الشرعي لأولاد محمد علي الحقيقيين في حكم مصر. يؤكدون وهم يحكون أنه لولا مرض محمد علي واعتزاله في سنواته الأخيرة لكان أعطى الحكم من بعده لنسله من لحمه ودمه لا لحم ودم علي بك. تخيل يا هنري لو صدقت هذه القصة، كم سيكون القدر ساخرًا!!

كلما سمعت مثل هذه القصص، أدركت أن البشر جميعًا ألعوبة في يد المقدرات. أحيانًا نسمو ونرتفع إلى آفاق نظن أننا نقبض بها على مجريات حياتنا لنجد في لحظة واحدة ما نحن به وقد انقلب.

لقد قررت يا هنري أن وقت عودتي إلى إنجلترا قد حان. لم أفاتح نازلي في قراري بعد، وأعلم أنها ستعارضه معارضة شديدة، ولكني سأصر عليه. اريد أن أعود إلى حيث ما زال يوجد ولو بصيص طفيف من الأمل في أن أجدك. أعدك إن حدث هذا ألا أكون سببًا في اضطراب حياتك. سيكفيني أن أطمئن من بعيد على أنك سعيد، وأن مَن ضموك يحسنون رعايتك. سأمكث إلى جوار نازلي ربما لأشهر قليلة، وأتركها بعد أن أطمئن على أمانها هي الأخرى. حان وقت إنهاء ترحالي وبدء حياة تأجل استقرارها أعوامًا.

أحبك يا صغيري.

المخلصة لك

16

القاهرة 9 ديسمبر 1880

هنري العزيز..

عامان أو أكثر مضيا دون أن أكتب لك. استمررت أصارع رغبتي في أن أشركك بتفاصيل أيامي، واشتقت لأن أعاود مراسلتك فمنعني خوف من أن أوصم بالجنون إن فعلت، أو لعل لوثة أصابتني فعلًا ذلك اليوم الأسود الذي وصلتني فيه رسالة موريسون المشفرة تعلنني:

«يؤسفني يا سيدتي أن أخطركِ بأن نتاج بحثي وتتبعي طوال هذه السنين لرضيعكِ الذي تركتيه تجعلني مضطرًا إلى أن أطلب منكِ توقع الأسوأ فيما يخصه».

انسحبت روحي من جسدي وتوقفت أنفاسي كلما أعدت قراءة كلماته. أعدت فك الشفرة مرارًا وتكرارًا آملة أن أكون قد أسأت ترجمة مقصده. سرت بجسدي رعشة وأنا أقاوم تصديق ما حملته كلمات مراسلي. تحجرت الدموع في عينَي وأنا ألوم نفسي على فقدك. أنا المسئولة دون غيري لو كنت رحلت يا هنري. جبانة تخلت عمَّن خرج من رحمها وتركته دون أن تدفع عنه يد ملاك الموت لو حاول أن يأخذه. لا لست جبانة، بل مجرمة وقاتلة، أنا مَن قتلتك يا حبيبي. لم أحتج إلى أن أعرف إن كنت مرضت أم إن موتك كان في حادث، فلم يكن السبب مهمًا. أعترف بأنني يوم تركتك، حكمت عليك بحياة تعيسة أو ميتة قبل موعدها. جاش بصدري غضب عارم على كل مَن تسببوا في فراقنا يا حبيبي. على ألبرت وأهله، وعلى أمي، وعلى مجتمع يقرر المقبول والمرفوض. يحكم بمعايير باردة متجاهلة للعواطف، رافضة غفران ما يدَّعون أنها مكارم الأخلاق. مجتمع يرفض العفو ويصر على جلد خطَّائيه حتى لو أن دعوة الرب الذي يعبدونه عنوانها الأسمى الغفران.

غضبت من أبي الذي تركني ألاطم أقداري، وامتلأت حنقًا، يا هنري، جرّاء ظُلمة ووحشة الطريق، الذي فُرض عليّ أن أسلكه.

تحول غضبي الرهيب هذا إلى خوف احتل كل خلجات جسدي. خوف من أن أجن، ورعب من نقمتك عليّ، ووجل من مزيد من غضب الرب. وما لبث أن اختفى ذلك الرعب الذي ملأني لتحتل مكانه وحشة وفضاء وفراغ لا نهاية له. أصبحت كالغريقة في بحر مظلم ألتمس الخروج منه بلا جدوى. أمد يدي محاولة المرة تلو الأخرى فلا يأخذ بها منقذ. أيام طوال مرت عليّ وأنا في دوامة لا أملك الخروج منها. ما ظل مرافقي طوال هذه الفترة التعيسة كان إحساسًا لم أستطع في البداية تفسيره. شعاع ضعيف من الضوء أخذ يشتد مع مرور الوقت لأبدأ أنا في تلمس ما أنار قلبي. سيقولون عني مختلة وفاقدة لعقلي لكني لا أصدق ما أخبرني به موريسون. قلبي يا هنري يؤكد لي أنك ما زلت حيًا. أوقن في قرارة نفسي أنك هناك في مكانٍ ما تتنفس وتتحرك وتعيش كما أتمنى. هذا اليقين أعاد لي القدرة على الحياة من جديد. قررت أن أتمسك بذلك الأمل الواهن وأن أظل أحلم بأني سآخذك في حضني من جديد. سأنصت إلى ذلك الصوت الذي بداخلي حتى لو أنه لسان حال جنوني. قررت ألّا أعود إلى إنجلترا لأبحث عنك كما عزمت، ربما خوفًا من أن يقتل ذلك البحث ما تبقى بي من رجاء. فقط، إن أذنت لي، سأظل أكتب لك، وسأحتفظ بذلك سبيلي للوصال معك وملاذي للاحتفاظ بما تبقى من عقلي.

قررت أيضًا أن أنتقل للعيش في بيت مستقل. غضبت نازلي جدًا حين أخبرتها بذلك ورفضت حتى سماع أسبابي. استمرت مقاطعة لي عدة أيام قبل أن تنهي حالة الخصام التي أعلنتها. شرحت لها أن كلينا تحتاج مسحة من الحرية، وأن انتقالي إلى مسكن خاص بي لا يعني أني لن أقضي معظم نهاري وأغلب أمسياتي لديها. رجوتها ألّا تسيء تفسير رغبتي، فأنا لا أريد أن أنقطع عنها أو ألّا أشاركها حياتها النابضة. فقط أريد أن أظل قريبة منها، وعلى التوازي لي حياة

مستقلة.

جزء من إصراري مرتبط بقراري بالبقاء في مصر وعدم العودة إلى إنجلترا. ما لم أخبرها به كان أني عزمت على أن تكون لي حياة كاملة لا أن أستمر في ظلالها. أدركت منذ فترة طويلة أن مكوثي في فيلا هنري سيمنع عني ذلك الاكتمال، إذ لن أكون سوى تابعة من حاشيتها. أعلم أني سأظل مرتبطة بها، وأحيانًا حد الالتصاق. ولذلك وجدت في هذا القرار راحة أن يكون لي شيء من الخصوصية افتقدتها طوال سنوات تجوالي معها. ثم إن لديَّ من المال والمدخرات ما يسمح بتلك الاستقلالية المنشودة، فقد أحسنت ادخار مرتبي منذ استخدمني الأمير مصطفى فاضل، ومن بعده المخصص الشهري الذي رصدته لي نازلي. وزاد على ذلك المكافأة التي يحولها السيد موريسون عن عملي لحساب مكتب الشئون الخارجية.

الأهم أني وفقت في العثور على منزل جميل من ست غرف. موقعه رائع يطل من جانب على حديقة روزيتي، وعلى بُعد ياردات قليلة من حديقة الأزبكية. أشعر بالأمان لوجود البيت في وسط منطقة القنصليات الأجنبية، إذ تحيط به قنصليتا: اليونان وهولندا من ناحية، وبروسيا وإيطاليا من الأخرى. كما أن بالقرب منه عدد من أفضل فنادق القاهرة العامرة دائمًا بالمرتحلين. الجميل أنه لا يبعد أكثر من عشرين دقيقة تمشية إلى قصر نازلي. على مضض، وبعد نقاشات طالت، وافقت نازلي أخيرًا وباركت انتقالي إلى منزلي الجديد اعتبارًا من الأسبوع القادم بعد أن أتمم فرشه. بي سعادة وفرحة كبيرة بتلك الوثبة التي أوشك على أخذها. أمني نفسي ببرنامج يومي للتمشية من الأزبكية إلى مبنى الأوبرا، ومن هناك أتريض قبل الغروب في شارع سليمان باشا قبل العودة إلى بيتي. لم يكن صعبًا عليَّ أن أختار القاهرة لتصبح موطني، فقد وقعت في غرام كل تفصيلة من تفاصيلها. أعشق شوارعها الواسعة وبناياتها الفخمة التي تصطف بشموخ على جانبيها. كم أحب أشعة شمسها وقت العصر وقد هدأت حرارتها وبردتها النسائم

التي تحمل عذوبة النيل. تذكرني تلك المنطقة من المدينة بأيام باريس. نجاح باهر أصابه إسماعيل وهو يحقق حلمه بتحويل عاصمته إلى صورة مصغرة من باريس. وإن كانت القاهرة أروع بجوها الدافئ وشمسها التي لا بد وأن مدينة النور الباردة تحسدها عليها. أظن أن الخديوِ ومعه هاوسمان فاقا ما طمحا إليه فشيدا ما يشير الكثيرون الآن إلى أنه أجمل مدن العالم وجوهرة الشرق.

القاهرة يا حبيبي مدينة لا يملك المرء سوى أن يُشغف بها ويقع في حبائلها. نجح الخديوِ إسماعيل ومهندسوه في أن يحققوا حلمه بأن تُناطح باريس في جمالها. لعلك يومًا تزورها فتبهرك كل تفاصيلها. لن أقدر أن أصف لك كوبري قصر النيل بأسوده البرونزية الأربعة التي تحرسه من ناحيتيه بشموخ، أو كوبري أبو العلا الذي أتقن تصميمه جوستاف إيفل مُشيد البرج الباريسي الأشهر. أما لؤلؤة هذه المدينة البديعة، فهو ميدان عابدين الذي يزينه أجمل قصورها، وتحيط به من جميع جوانبه حدائق غنَّاء، جُلبت أشجارها من الصين والهند وأمريكا. لم أستطع أن أضع يدَي على أسرار جاذبية هذه المدينة! ربما اهتمامهم بالأرصفة وأفاريز المشاة التي تُعبّر عن مقدار التحضُر الذي أرادوه لها، أو المباني التي لا وصف لها سوى أنها رائعة تجمَّعت في رسمها مواهب المعماريين الأوربيين من فرنسا والنمسا وإيطاليا. أطلقوا أياديهم فصمموا ما جال بخواطرهم ولم تُتَح لهم فرص تحقيقه في بلادهم. المذهل حقًا في هذه المدينة هو تنسيق حدائقها بأشجارها الوارفة التي تُعانقها أشعة شمسها المضيئة لتُشعر السائر في شوارعها بأنه جزء من معزوفة لا تترك حاسة من حواسه دون مداعبة.

أتعرف يا هنري؟ المدن ليست فقط بمبانيها ومعالمها. أهم ما يميز مدينة عن الأخرى هم ساكنوها. شخصية المكان من شخصية أهله، والقاهرة يا حبيبي شخصيتها دافئة، وكريمة، ومعطاءة تمامًا كأهلها. قد يحلو للأوربيين أن يقللوا من قدر المصريين أو يتهموهم بأنهم ليسوا على نفس درجة تحضرهم؛ لكن الحقيقة أن أهل مصر يعوضون تلك

النقائص، إن وجدت، بطيبتهم وسمو أخلاقهم. أجد فيهم نوعًا من الكبرياء والتأفف مخلوطًا بتقبل للآخر ومقدرة مدهشة على احتواء الغريب. أظن أن قِدم هذا البلد، وكونهم أول حضارة على الأرض، قد أورثتهم تلك الصفات، وجعلت أمثالي لا يريدون مغادرة المحروسة بعد أن استطعمنا حلاوة مذاق سكناها. ولأني لا أستطيع أن أفك حبائل غرامها التي احتضنتني، كان قراري بالاستقرار فيها.

لا أستطيع أن أتغزل في القاهرة وجمالها دون أن يصيبني شيء من الشجن على الرجل الذي كرَّس سنوات حكمه في بنائها. وحين أتذكر الخديو إسماعيل ونهايته لا بد وأن تقفز إلى ذهني تلك الآية من سفر دانيال التي طالما كررها على مسامعي القس وأنا صغيرة في مدارس الآحاد: «وَهُوَ يُغَيِّرُ الأَوْقَاتَ وَالأَزْمِنَةَ. يَعْزِلُ مُلُوكًا وَيُنَصِّبُ مُلُوكًا. يُعْطِي الْحُكَمَاءَ حِكْمَةً، وَيُعَلِّمُ الْعَارِفِينَ فَهْمًا».

هل لو وصفوا له كيف ستكون نهايته كان سيصدقهم؟ كم هو ساخر القدر! وكم هي قاسية سخريته وتلاعبه بالبشر! أستعيد أيامي في القسطنطينية وشكوى الأمير مصطفى المتكررة من كم الرشاوى التي يدفعها أخوه من أجل استصدار الفرمان السلطاني الذي يحصر حكم مصر في أبنائه. آلاف الآلاف صرفها كي يستميل السلطان وحاشيته حتى يرضوا عنه ويستجيبوا لمآربه. ويوم صدر الفرمان المنشود بالتأكيد كان تصوره أن يرث كرسيه حسن باشا ابنه المفضل الذي جاوره في الحكم بعد عودته من بعثته التعليمية في فرنسا. لم يتوقع أن يفرض عليه الباب العالي أن يكون ولي عهده ابن الجارية شفق نور. حاول أن يناور فهددوه بإلغاء الفرمان إن لم ينصَع، وأصروا على أن يُشرعن بنوته بزواجه من الجارية التي تحولت إلى هانم بين ليلة وضحاها. ولكن ذلك عهدي بإسماعيل، فهو دائمًا يعزم على الشيء فيكرس جهده كله لتحقيقه متجاهلًا في سبيل ذلك تفاصيل تنتقص من سعيه. أراد أن ينقل بلده إلى مصاف أوربا وتقدمها فلم ينتبه للكمائن التي نصبها له مَن أراد أن يقلدهم. كبَّلته بنوكهم بالديون وهم يثمنون

جلال ما يهدف لإنجازه وروعة ما يشيده.

كالعادة في لعبة السياسة جاءت اللحظة التي قرروا فيها عدم حاجتهم له وانتهاء دوره. التفوا بخبث حول السلطان العثماني يوعزون إليه أن يعزله. لم يحاولوا أن يضفوا كرامة أو كبرياءً في الطريقة فكان الإخطار مماثلًا لقرار رفت موظف بأحد الدواوين. تلغرافان ملخصان من الباب العالي أسقطاه من على عرشه: واحد إلى إسماعيل دون لقب والآخر إلى مَن أصبح الخديوِ توفيق دون توقع ولا مقدمات. نجح في أن يتولى أحد أبنائه الحكم من بعده، وإن فشل في أن يكون له اختيار أي الأبناء. وعلى نفس منوال تعليمات العزل جاءت الأوامر للخديوِ الجديد بضرورة نفي أبيه خارج البلاد في أسرع وقت. هل كان يتصور، وهو يدشن المحروسة، يخته المهيب، أنه سيحمله يومًا من مصر إلى غير رجعة؟ كيف شعر وهو يرى ابنيه المفضلين حسن وحسين كامل يرافقانه إلى منفاه بعد أن قبّلا يد أفندينا الجديد، ابن الجارية، مودعين. هكذا وفي لحظات متلاحقة انتهى عصر إسماعيل ودخلنا عهد توفيق. يقولون إن الخديوِ الحالي لم تكن به رغبة في تولي الحكم وإنه فعل ذلك فقط من أجل حفظ الولاية في أسرة أبيه كرغبته. لا أملك إلا الابتسام حين أسمعهم يرددون تلك الترهات، فأنا متأكدة ممَّا أسمعه من نازلي عن توفيق، أنه ينفث الآن عمَّا حمل بصدره نحو أبيه وإخوته. سنوات طوال تجاهلوه فيها وأبعدوه عنهم وأشعره أبوه، دون تورية، بأن إخوته لهم المكانة الأقرب لقلبه. أترى يا هنري لمَ أرى القدر ساخرًا متلاعبًا بنا دون اكتراث؟! دعنا من كل ذلك يا حبيبي واسمح لي أن أستمر في مراسلتك كما اعتدت. لن أتخلى عن حلم لقياك، ولن أتوقع الأسوأ كما نُصحت. أعدك بأن أحاول ألا أغيب طويلًا، وإن غبت فاعلم أنك لا تفارق وجداني وأني دائمة التفكير بك.

أحبك.

ليديا

17

مفكرة سيدني بويد

7فبراير1914

من واجبات وظيفتي أن أتحرى الدقة في المعلومات التي تصلني، وأن أتأكد من أنها صحيحة. ذلك مهم جدًا قبل أن أقدم على قرار أو توصية أرفعها إلى رؤسائي. حين قصّت عليّ ليديا كيف آلت إليها المجوهرات وجدت في ذلك فرصة للتأكد من طبيعة شخصيتها ومدى صدقها وإن كان ما تقول وما كتبت في رسائلها يستحق أن يؤخذ مأخذ جد أم لا. لذلك أخذت معي إلى منزلي بالأمس بعض ملفات بها مراسلات إلى مكتب الشئون الخارجية من القسطنطينية والقاهرة في زمن زيارة نازلي المزعومة للسلطان عبد الحميد. تصفحت رسائل السير نيكولاس أوكونور سفيرنا في القسطنطينية في مطلع القرن فوجدت رسالة منه نصها:

«إن الأميرة نازلي هانم فاضل، وهي الأميرة الوحيدة التي لها صالون في القاهرة تقابل فيه رجال السياسة والوزراء والأدباء وكبار القوم، وهي ذكية جدًا ومثقفة ثقافة عالية وملمة بالسياسة العامة في العالم، وغيورة للغاية في الحرص على مصالح مصر بنوع خاص. ترجمت رسالة شهيرة لمصطفى فاضل باشا والدها ضد مظالم السلطان وتصرفاته المخزية. وقد طبعت الترجمة ونشرتها فغضب لذلك السلطان. طلب من الخديوِ عباس أن يسترضيها بكل ما لديه من الوسائل وبجميع ما في ميسوره من المغريات مع جمع نسخ الكتاب وإرسالها للقسطنطينية. زادت على ذلك أن حضرت ودعمت اجتماع حركة تركيا الفتاة في باريس. فما كان من السلطان إلا أن دعاها لزيارته فاحتاطت مع وصولها إلى القسطنطينية بأن بعثت إلينا إحدى

وصيفاتها طالبة الحماية من طرفنا، وهو ما وافقنا على توفيره. وفي اليوم التالي لوصولها توجهت للسراي السلطانية وبصحبتها مندوب من قِبلنا. بمجرد أن علم بذلك السلطان قابلها أحسن مقابلة، وأنعم عليها بكثير من الهدايا والعطايا».

ثم وجدت رسالة أخرى في ملفات مراسلات القاهرة والتي بعث بها رولاند ستورز السكرتير الشرقي هناك:

«قمت بزيارة الأميرة نازلي فاضل اليوم فلاحظت أثناء حديثنا أن لسان حالها نحو السلطان قد تغير، وأصبح كل كلامها نحوه بالمديح وآيات التقدير بعد أن كان بالطعن والتشهير، فتعجبت وقلت لها إن لهجة كلامها قد تغيرت بعد عودتها من زِيارته. كان ردها أن أمرت أحد توابعها بأن يُحضر صندوقًا من حجرة نومها ففتحته أمامي لأجد فيه ما يبهر الأبصار من جواهر كريمة ولآلئ ثمينة وأحجار من الماس وذهب خالص. ولما تأكدت من انبهاري بما رأيت قالت لي ضاحكة: هذا ما أوجب تبدُّل لهجتي نحو جلالة مولانا الخليفة».

ارتحت كثيرًا لما وجدت توثيقًا لرواية ليديا. استغربت من غبطتي أن ثبت صدقها لكن أوعزت ذلك إلى تعاطفي مع كبر سنها وما علمته من خطاباتها ممَّا مرت به في حياتها في الغربة. آخر ما كنت أتمناه أن تكون كاذبة فأضطر إلى أن أتخذ موقفًا مناوئًا لرغباتها.

قرب الظهيرة قررت أن أقوم بزِيارتي للسيد مورِيسون. من وقت أن أعطوني عنوان منزله لفت انتباهي أنه يقطن في بلجرافيا، الحي الأرقى بلندن والمجاور لقصر باكنجهام. تحريت من مصلحة السجلات العقارية فوجدت أن البيت مسجل باسمه منذ عام 1880. وجدت ذلك غير متسق مع وضعه ودخله كموظف حكومي. عاد هذا الموضوع يشغل بالي وأنا أدلف من شارع كنجز إلى ميدان إيتون حيث يقبع منزله.

فتح لي الباب بنفسه بعد أن رننت الجرس عدة مرات فأدركت أنه يعيش وحيدًا. وجدته معتنيًا بنفسه ومتأنقًا في لباسه فشعرت بأنه

أصغر ممَّا عرفت من ملف خدمته. رحَّب بي ودعاني للدخول بعد أن عرَّفته بنفسي وبمكان عملي.

- مكتب الخدمة السرية هو تسمية مختلفة لما كنا نحن نقوم به في مكتب الشئون الخارجية يا سيد بويد.

كانت هذه أول كلماته بعد أن جلسنا بجوار المدفأة التي أحسن تغذيتها بالأخشاب لتستعر وتبعث الدفء في المكان.

- نحن أهم جنود بريطانيا العظمى.

تركته يسترسل:

- فكر فيما أقول.. نحن في النهاية جزيرة صغيرة في وسط عالم نطمع في السيطرة عليه. لا سبيل لنا إذًا لهذه السيطرة بالرجال والعتاد، فإن أردنا أن نحقق مرادنا فعلينا إعمال ذكائنا واستخدام الحيل والخداع لتحقيق أهدافنا.

للحق أعجبني منطقه، فعلقت على ما قال بما ظننت أنه سيجعله يستفيض:

- لكن القوة العسكرية مطلوبة وإلا لن نستطيع إخضاع البلاد وشعوبها لإرادتنا.

- الجيش القوي أمر مفروغ من ضرورته، لكن استمرارية السيطرة تحتاج إلى أن ينضم إلينا أبناء الشعوب التي نسودها. من أجل استتباب الأمور لنا لا بد أن ينحاز لنا المؤثرون من أبناء البلاد التي نستعمرها. المؤثرون الذين أقصدهم سهل ضمهم وضمان انحيازهم لصفنا.

سألته مستغربًا:

- سهل؟

- طبعًا عن طريق تحقيق مصالحهم. أول مَن يحسبونها في العادة هم

أثرياء البلاد وأصحاب الحظوة. هؤلاء يريدون استمرار واستقرار أوضاعهم فإن وفرنا لهم ذلك استحسنوا وجودنا. ثم يلي هؤلاء مَن يتوقون إلى الترقي، وأولئك من اليسير ضمان ولائهم حين نوفر لهم سبل الثراء والرفعة التي يصبون إليها. إن سيطرت على هاتين الطائفتين في أي بلد دان لك واستطعت أن تسوس البلد كيفما شئت.

أظنه سعد بالإعجاب البادي على وجهي فاستمر:

- يتبقى بعد ذلك أن تنشر من خلال أولئك المستفيدين، الذين هم أبواقك، أن وجودك ليس استعمارًا وإنما هو الأفضل للوطن ولشعبه، وأن وجود قوة عظمى مثل بريطانيا هو سبيل الرفعة والتمدن والرخاء.

بدا لي أنه لم يحظَ بصحبةٍ منذ أمدٍ بعيدٍ فتركته يسترسل في رؤيته:

- ومن أجل إخضاع تام للشعوب يجب أن نشغلها بإشعال صراعاتها التي أخمدتها يد حكامها الأصليين الطاغية. نستعدي الهندوس على المسلمين، والترك على الأكراد، وطائفة مسلمة على أخرى مسلمة، وهكذا. تمامًا مثلما فعل يوليوس قيصر حين فرَّق ليسُد. بالمناسبة في آخر تقرير لي قبل خروجي على المعاش كتبت هذا الكلام وتوقعت أن الاستعمار العسكري لن يدوم. أوصيت بأن نبذر من الآن بذور الفرقة في البلاد التي نحتلها حتى نترك وراءنا حين تغادرها جيوشنا أذنابًا نائمة نوقظها متى دعت الحاجة.

حين انتهى من محاضرته في شئون سياسة الإمبراطورية سكت برهة ثم ابتسم قائلًا:

- لكنك لم تأتِ يا سيد بويد لتسمع آرائي في كيفية تسيد العالم.. قُل لي كيف أستطيع أن أعاونك؟

دون تردد بادرته:

- جئت هنا لأسألك عن ليديا ستون، هل تتذكرها؟

- وهل يمكن أن أنسى أول وأنجح مَن جنَّدت للعمل معنا؟! كانت المرشحة المثالية، فتاة متعلمة ومثقفة، ترغب في الابتعاد هروبًا من قصة حزينة. قبل أن أقابلها أول مرة تحريت عنها فلململت أطراف قصتها وأسباب تركها لبرمنجهام. حينذاك تيقنت أنها ستقبل ما سأعرضه عليها وستذهب حيث أريد برضاها. لقد برعت في تقاريرها واستمرت عبر السنين ودون كلل تمدنا بمعلومات مهمة. ما أمدتنا به كان مهمًا لنا كي نعلم ما يدور في أروقة القصور وبين الطبقات العليا ومثقفي البلاد التي عاشت بها. ما استغربته أنها أمضت كل هذا الزمن دون أن تعود إلى إنجلترا، أو لعلها عادت دون أن تفصح، لا أدري.

سكت قليلًا قبل أن يسألني:

- ما الذي تريد أن تعرفه عنها؟ التقارير التي أرسلتها موجودة في ملف باسمها في مكتب الشئون الخارجية.

- أريد أن أعرف ما الذي حدث للرضيع الذي تركته في برمنجهام.

ظهر شيء من الضيق على ملامحه وفي صوته:

- وما علاقة ذلك بعملها؟ هذا موضوع لا يخصنا.

- سيد موريسون، أعلم تمام العلم أنك تخفي شيئًا بخصوص هذا الموضوع، وأريدك أن تعرف أني بحاجة لأن تبوح لي بكل ما لديك لأنه سيساعدني في حل مشكلة ضروري أن أنهيها.

- كل ما أعرفه أنها تركت الطفل في ملاذ أو في ملجأ، وتبنته عائلة ثم لم أستطع أو بالأحرى لم أهتم بتتبعه من بعد ذلك!

- لكنك أخبرتها في وقت لاحق بأن تتوقع الأسوأ، ماذا قصدت بذلك؟

- لا أتذكر أني نصحتها بذلك. لو قالت هذا فهي تهذي.

- دعني أنعش ذاكرتك، لقد أخبرتها بذلك في عام 1880، أي بعد أعوام

طويلة من تجنيدها، فلماذا؟

كان وجهه يزداد امتعاضًا كلما ضيقت عليه الخناق. اختفت الابتسامة المرتاحة التي علت شفتيه وقت أن كان يتحدث بأريحية عن طبيعة وغرض أعمالنا وسبيل بريطانيا لتسيد العالم. استمررت في سؤاله وظل على مراوغته حتى قررت أن أغامر بما اعتبرته ورقتي الأخيرة. لم يكن بيدي دليل كافٍ على ما نويت أن أتهمه به، وإن وثقت في حدسي أن بالأمر شيئًا خفيًا ومربوطًا بليديا ووليدها:

- وهل من المصادفات أيضًا أنك اشتريت هذا البيت الفخم في وسط بلجرافيا سنة 1880؟ لا أظن أن مرتب موظف بمكتب الشئون الخارجية يُمكّنه من امتلاك بيت في أغلى أحياء لندن.

تملك الاضطراب قسماته وأصبح بصوته مزيج من القلق والغضب حتى إنه طلب مني المغادرة. شعرت بأنني على وشك الحصول على معلومات فارقة وأنا أراه يتصبب عرقًا فقررت أن أزيد ضغطي عليه. بهدوءٍ شديد ذكّرته:

- قانون مكافحة الفساد الذي سنّته حكومة الملكة فيكتوريا يوجب عقوبة السجن للموظف الحكومي المرتشي. يمكنني يا سيد موريسون أن أرتب نقلك من بلجرافيا إلى سجن مناسب متى أردت ذلك! ويمكنني أيضًا نسيان الموضوع برمته إن صارحتني بما تعرف.

استمر يراوغ ويناور واستمررت أضغط عليه وأهدده إلى أن أصر على إنهاء اللقاء بعد أن قال:

- إجابات أسئلتك تجدها عند اللورد في برمنجهام!

18

القاهرة 10 مارس 1883

هنري العزيز..

لا بد أن أحكي لك عن الليلة البديعة التي قضيتها بالأمس. أول مرة في حياتي أذهب إلى الأوبرا يا هنري، ولا وصف لما اختبرت هناك إلا بالخيال. لا أعرف من أين أبدأ وإن بدأت هل سأستطيع أن أكف عن الوصف. كل تفصيلة في المكان لها وقع ومذاق خاص بداية من الحديقة الخلفية الصغيرة، بزهورها الملونة التي تخفي بين ثناياها سلالم الصعود إلى مدخل السيدات. وما إن دخلت إلى حيث مقاعدنا حتى تسمرت في مكاني واقفة وقد أسرتني العظمة التي تفوح من كل ركن من الأركان. جاورت نازلي في إحدى مقصورات الأميرات التي لفها مصمم الأوبرا الإيطالي بستارة من المعدن المشغول كالدانتيلا ليمنع أي نظرات متلصصة من بقية المتفرجين الجالسين بالصالة. مكاننا كان في المستوى الثالث الذي تربطه بما تحته خيوط ذهبية تزين الحوائط البيضاء التي زادت من وهج القاعة. ومن السقف تتدلى ديباجات بكامل الارتفاع، تزينها زهور مذهبة تخطف الأعين. كسوة المقاعد مخملية، لونها أحمر داكن متناسق مع ألوان القطع الفنية الرائعة المعلقة على الحوائط. أما جوهرة التاج فكانت ستارة المسرح المكتسية باللون القرمزي الداكن والمشغولة بخيوط من ذهب لامعة في ثلثيها الأعلى والأسفل على نفس نقوش الستائر المعدنية التي نجلس وراءها.

لم نفوّت أنا ونازلي فرصة التعليق على الثياب الباريسية التي ارتدتها السيدات في مقصوراتهن. كن وكأنهن يتبارين في عرض أناقة ملبسهن. تلألأن بفساتين مبهرة أغلب ألوانها زاهية بها بريق لامع متناغمة مع

قطع المجوهرات المرصعة بالألماس المتدلية من آذانهن والمحتضنة برفق رقابهن. لفت نظرنا أيضًا وسامة الرجال وقد ارتدوا البزات السوداء ذات الذيول الطويلة ومن تحتها القمصان البيضاء المنشاة التي يتوجها رباط العنق الأسود. أصاب المشهد حد الكمال بذلك التناغم التام ما بين الأوركسترا والتنسيق الداخلي مع الحضور. أحسست بأنني جزء من جدارية مرسومة بألوان زيتية بهية.

ثم بدأ السحر يا هنري واستمر على مدار ثلاث ساعات. تملكتني أصوات الممثلين الصادحة فتسللت من أذني إلى وجداني. مع كل طبقة صوت جديدة يصيبونها تتلبسني قشعريرة ونشوة ممتعة. على خشبة المسرح اندمج الممثلون بأزيائهم المتقنة الصنع، على خلفية المشاهد التي أحاطت بهم والتي أخبرتني نازلي بأنها تم تصنيعها خصيصًا وشحنها من باريس. أبهرني عرض عايدة الذي استقى موسيقارها ڤيردي إلهامها من الحضارة المصرية القديمة. قصة خالدة من الحب والخيانة تتقاطع مع الحرب. أوبرا عبارة عن بوتقة من المشاعر المتقدة يتم سردها من خلال عبقرية ڤيردي الموسيقية. عايدة أميرة حبشية محتجزة في مصر تقع في غرام القائد المصري راداميس. عندما يتم اختياره لقيادة حرب مع الحبشة، يبدأ بداخلها الصراع بين حبها لوطنها وعشقها له.

مع انتهاء العرض شعرت وكأني أفقت لتوي من حلم مدهش. تخيلت ليلة افتتاح دار الأوبرا أيام الخديوِ إسماعيل وأول عرض لعايدة والأبهة التي صاحبت هذا الحدث ومَن جلسوا في أماكننا من العظماء يومها.

ومع كل ما كنت به من انبهار وإثارة، فلم تكن زيارتي للأوبرا هي السبب الوحيد لانتشائي. كنت سعيدة بخروجنا بسلام من الأيام الصعبة التي تتابعت علينا طوال السنتين الماضيتين. فترة صعبة مرت علينا هنا في مصر ونحن نتأرجح ما بين صراعات الجيش وقياداته مع توفيق. أظن أنهم عندما سيؤرخون لما حدث سيبدأون بذلك اليوم الذي

توجه فيه عرابي إلى قصر عابدين حاملًا طلبات الضباط المصريين بالمساواة بالچراكسة والأتراك. لكن أولئك المؤرخين لن يفطنوا إلى أن الأمور لم تكن ستقف عند احتجاج ضباط واستجابة حاكم، حيث كان هناك مَن يخطط بهدوء لأغراض أبعد بنيّات مبيتة.

لم يمضِ وقت طويل من بعد أن تقدم عرابي بطلباته للخديوِ إلا وجاءتني التعليمات من لندن بضرورة تكثيف تقاريري عمَّا أسمعه في أوساط نازلي وغيرها من بيوت الأميرات. كذلك أخطروني بأن أسلم المعلومات التي أحصل عليها إلى مكتب كرومر مباشرة. أول ما فعلت كان أن طلبت من نازلي أن أنتقل من جديد إلى فيلا هنري. كما توقعت رحبت صديقتي بي لما قلت لها إني سأشعر بأمان أكثر بجوارها في ظل الظروف السائدة.

أكثر ما أتعسني في تلك الفترة، كان إحساسي بأنني خائنة، وأنني لست سوى جاسوسة على أعز صديقاتي ومَن حولها. أوقات كثيرة شعرت فيها بالرخص وبأني ناكرة لمعروفها وحسن معاملتها. وكلما وصلت إلى أدنى درجات الإحباط، وزاد اشمئزازي من نفسي جراء خداعي، وجدت أحاسيس أخرى تشدني فترفعني وتقنعني بأن ما أفعله صواب. كان بي فخر بأنني أخدم وطني وأنني أؤدي ما أسند إليّ بتميز. الآن أدرك أني مررت بنفس الصراع الذي عاشته عايدة بين حبها لراداميس وولائها للحبشة. لكني في النهاية لما أمعنت التفكر في الأمر، أيقنت أننا، أعني بريطانيا، نفعل ما فيه الأفضل والأجدى لمصر وأهلها. لم تكن بهذا البلد الجميل ولا أهله جاهزية لأن يتولوا زمام أمورهم. سذاجة وطفولية زعمائهم ووقوعهم المرة تلو الأخرى في شراك خصومهم أثبتت رجاحة تفكيري، وأن ما أفعله وما فعلته بريطانيا في النهاية في مصلحة مصر والمصريين.

الآن أدركت أن الأمة التي تبغي أن تسوس نفسها، عليها أولًا أن تجد زعيمها. لم يكن عرابي الزعيم الذي تحتاجه مصر. بدا لي طوال الوقت أنه يريد أن يرضي الجميع، وأنه دائمًا يبحث عن حل يتوافق عليه

الأطراف. في الحياة يا هنري لا يوجد حل يرضي جميع الأطراف، ولا يوجد شيء واحد اتفق أو سيتفق عليه كل البشر. كان هذا أيضًا هو رأي نازلي التي طالما حاولت أن تقنعه بأن يأخذ الأمور بيده، وأن يطيح بالخديوِ وألا يخشى في ذلك أحدًا؛ إذ إن الشعب وراءه بجميع طوائفه. حتى إنها ذكّرته بما فعله جدها الأكبر مع المماليك، وطالبته بأن يتبع منهجه في التعامل مع مَن تبقى من الأمراء من أحفاد محمد علي. كانت نازلي شديدة الحماس لما يحدث، وساندت الوطنيين بكل الطرق المتاحة، بما في ذلك تبرعها عدة مرات للجيش المصري. لم تكن وحدها من بين الأميرات التي أيدت عرابي وزمرته، فقد فاقتها إنچي هانم أرملة الخديوِ سعيد التي أغدقت عليهم بالكثير حتى سرت إشاعة بأنها أبلغت عرابي نفسه استعدادها للزواج منه إن كان في ذلك تأمين له من غدر توفيق والباب العالي.

كررت نازلي في أحاديثها معي تمنيها أن يقود المصريين مَن على شاكلة صديقها الشيخ محمد عبده. أتذكر في البداية حين استمرت في الإلحاح عليه بأن ينحاز للضباط المصريين، فقد رفض طلبها ورد عليها بهدوء: «إن أول ما يجب أن نبدأ به هو التعليم لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية لا تحسين رواتب الضباط». لكنها وكعادتها لم تيأس وظلت تحاصره بإلحاحها. ومع تطور الأمور، وحين وجد أن أغلب المصريين توحدت رغباتهم مع طلبات قيادات الجيش، بدأ يستجيب إلى رجائها، وانضم إلى صفوف المعترضين من المصريين.

تابعت عن قرب التحول في موقف الشيخ محمد عبده، وكتبت في تقاريري أنه أصبح المفكر والروح والعقل المستنير لما يحلو لأهل مصر بوصفه بالثورة. لفت نظري في تلك الفترة أيضًا أنه من خلال تحريره لجريدة الوقائع أخذ يحمس الجموع ويؤجج المشاعر ويجمع الشعب خلف قياداته. الصداقة بينه وبين نازلي وطدتها كراهيتهما المشتركة والشديدة للأتراك. أتذكر في إحدى زياراته حين سألته عن رأيه في الأتراك واحتمالية إرسال الباب العالي لفرقة عسكرية إلى مصر، وكيف

عبس وجهه وهو يرد عليَّ وكأنه يلقي إحدى خطبه: «لا يستطيع مصري أن يفكر في نزول الأتراك في بلادنا بدون أن يشعر بعاطفة قوية تدفعه إلى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدي. إن الأتراك ظَلَمة قد تركوا في بلادنا من آثار السوء ما لا تزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح».

حزنت كثيرًا وأنا أرى قلب نازلي ينكسر بعد ما آلت إليه الأمور في النهاية من نفي الشيخ إلى الشام. كان الحكم عليه في البداية أشد قسوة، إذ قضي بسجنه. لكن صديقتي لم تسكت وظلت تضغط عليَّ وتناشد اللورد كرومر والخديوِ توفيق من أجل أن يخففوا الحكم. وحتى حين صدر الأمر الخديوي بنفيه لم تكتفِ بذلك، فكرست مجهوداتها واتصالاتها هذه الأيام من أجل الحصول على عفو تام عن صديقها. أتعلم شيئًا يا هنري؟ أنا على يقين من أن نازلي لن يهدأ لها بال حتى يتم العفو عنه فعلًا. أحلى ما فيها هي شهامتها تلك وعدم تخليها عن أصدقائها مهما كان.

تعجبني فيها أيضًا قدرتها على التعامل مع جميع الأطراف بنفس المقدار من الحفاوة. برغم ما أعلمه من ضيقها من دحر جيشنا لعرابي ورفاقه إلا أن هذا لم يمنعها من استمرار علاقتها بالإنجليز. ربما كانت المرة الوحيدة التي لم تكن المضيافة الكريمة كعادتها كان يوم اصطحب اللورد كرومر الجنرال جرانت وولسلي، قائد قواتنا، ليقدمه لها. أثناء الزيارة أكثر الجنرال من التباهي بقراره أن تكون المعركة النهائية الحاسمة تحت جنح الظلام. طوال زيارته وهو يكرر كيف كانت تلك الخطوة العبقرية من ناحيته فارقة في انتصار جيشنا. أمعن في سخريته وهو يخبرنا بأن الفكرة جاءته لما وصلته معلومة تقول إن أغلب الجنود المصريين يعانون من العشى الليلي . وضح على وجه نازلي عدم استساغتها لحديثه وتباهيه. ولكن حديثه وحكاياته أسرتني فشعرت بالفخر به وبما أنجز. لم أظهر مشاعري تماشيًا مع برود استقبال صديقتي له. شعور غريب أن أضطر لأن أظهر تأثري لحزنها

على هزيمة بلدها في الوقت الذي يملؤني الزهو بانتصار بني وطني. اضطرني قربي منها أن أخفي سعادتي بالدور الذي لعبته في إنجاح وتحقيق مخططات ومصالح بريطانيا العظمى.

من فرحتي بانتصارنا قررت الاحتفاظ بعدد جريدة الأهرام التي زفت فيه خبر وصول جيشنا إلى القاهرة. تحت عنوان «بشرى عظيمة» كتبوا: «ورد تلغراف رسمي من الباسل ولسلي أن السواري الإنجليزية احتلت العاصمة مساء أمس، وأن الجيش الإنجليزي قبض على العاصي عرابي». قسوة شديدة أن يصفوه بالعاصي وكل ذنبه أنه حلم بالأفضل لشعبه. لكن فيما يبدو لم يكن الشعب كله ظهيره كما تصور. أظنه حين شرع في مشواره وتحديه للخديوِ لم يتخيل أن ينتهي منفيًا عن وطنه ومنبوذًا من كثيرٍ من أهل بلده.

عمومًا ولّت تلك الأيام وعدنا إلى حياتنا كما اعتدناها برتابتها. عدت إلى بيتي بالأزبكية وإن أصرت نازلي أن يصحبني بشير ليقوم على خدمتي إلى جانب خادمتي الأخرى حتى يهدأ بالها وترتاح لوجود رجل يحميني. هو ابن أحد عبيد مصطفى فاضل باشا، وبالتالي امتلكه الباشا. لا أحد يعرف سر حب أبو نازلي له من يوم مولده وما دافعه لأن يتولاه ويهتم بتعليمه وكأنه أحد أبنائه. بفضل ذلك الاهتمام شبّ يتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة وعلى درجة عالية من الاطلاع. بعد وفاة الأمير ورثته نازلي. بشير قصته شديدة الغرابة. حين صدر قرار بإلغاء العبودية كان أول مَن أعتقت نازلي. غادر البيت وقد نقدته الأميرة من الأموال ما يكفيه لتدبُّر حاله والعيش عيشة كريمة. بعد أيام قليلة فوجئنا به وقد عاد من جديد يطلب الرجوع للخدمة ويصر على إعادة الأموال لنازلي. ذرف الدمع وهو يستجديها قائلًا إنه وقد شارف على الأربعين لا يعرف حياة إلا في كنفها. توسل إليها ألّا تطلقه وأن تعيده إلى ما اعتاد. تخيل يا هنري تعاسة ألا تستطيع أن تكون حرًا! الأكثر حزنًا ألّا تعرف كيف تعيش حرًا وأن يكون ملاذك في عبوديتك لبشر مثلك. أي بؤسٍ أن يُقدر لك أن تكون ظلًا لآخر تسلمه نفسك

ليتحكم بك وأنت راضٍ.

الغريب أن مَن يرى بشير دون أن يعلم بقصته لن يجد فيه أي أثر لعبودية. تجده أبيًا وبه شموخ في وقفته ومشيته ونظراته وإيماءاته. لا أخفيك أني أجده شديد الوسامة، عينيه واسعتين، بهما لمعة واتقاد، متناسقتين مع أنفه المفلطح قليلًا وفمه الذي لا تفارقه ابتسامة راضية تكشف عن صفي أسنان ناصعي البياض. أما جسده فمشدود وعضلاته بارزة وكأنه منحوت من الأبنوس اللامع كلون جلده الذي أعشق ملمسه متى جاءتني الفرصة. لقد كست حمرة الخجل وجهي الآن وأنا أصف بشير كفتاة مراهقة. حين أعدت قراءة ما كتبت عنه شككت أن بي لوثة. سأذهب الآن وسأعيد تنقيح هذه الرسالة في وقتٍ آخر حتى لا يكون بها خروج عن الأصول.

المخلصة لك

ليديا





19

مفكرة سيدني بويد

8فبراير1914

لحقت بقطار الثامنة صباحًا إلى برمنجهام. قررت أن أستغل رحلة الساعتين في الانتهاء من كتابة تقريري عن محمود باشا سليمان المرشح الذي ضمته القائمة التي شاركها معي السيد «سي» لاختيار الأصلح بديلًا لعباس حلمي الثاني. كان هذا هو المرشح ذا الأصول المصرية الخالصة والوحيد من بين الثلاثة الذي لا علاقة نسب ولا قرابة له بالأسرة العلوية الحاكمة. كلما راجعت المعلومات المتوفرة عنه، زاد استغرابي من وجوده في قائمة المرشحين من الأساس.
حاولت أن أوجز ما توصلت إليه فيما يخصه في تقريري عن هذه الشخصية المتفردة. فهو رجل مسموع الرأي، نافذ الكلمة في مسقط رأسه بمديرية أسيوط جنوب مصر. انتخب عضوًا بمجلس النواب وقت الخديوِ توفيق، ولعظم مكانته طُلب منه أن يلقي خطاب العرش في افتتاح أول دورات المجلس.

كان من بعيدي النظر الذين قدروا أضرار الحركة التي قادها عرابي، فعزف عن المشاركة فيها، كما رفض التعاون مع النظام الذي أعقبها. لعل هذا أحد الأسباب التي جعلت اسمه يحتل مكانة في القائمة التي أقوم بدراستها وتحليلها. وحين دخل جيشنا مصر أبى أن يستمر في التقدم للعمل العام تحت النظام الجديد الذي قمنا بسنه حين استصدرنا من الخديوِ قانون مجلس الشورى والجمعية العمومية. تنحى عن العمل العام وترك القاهرة إلى أسيوط، وعكف على عمله الخاص وعلى البر بالفقراء. وفضّل ذلك العزوف من سنة 1882 إلى سنة 1895 حين استجاب لضغوط أهل إقليمه فخرج من العزلة التي فرضها على نفسه

وتقدم لعضوية مجلس الشورى، وعاد إلى القاهرة وإلى العمل العام وانتخب وكيلًا للمجلس.

زاد قلقي من سيرته أنه كان في مقدمة مَن طالبوا بإجلائنا عن مصر بعد أن صار عضوًا في مجلس الشورى، كما أنه من السابقين إلى إنشاء الأحزاب المنظمة؛ إذ إنه هو أول مَن ترأس حزبًا ذا برنامج ونظام في مصر وهو حزب الأمة، والذي أصر على أن يشمل برنامجه المطالبة بأن تكون مصر للمصريين، وأن لا يكون فيها جنود أجانب. فلقد كانت الأحزاب المصرية إلى يوم تأسيس حزب الأمة تقوم على فكرة الدعوة لعمل واحد معين، فالحزب الوطني أيام عرابي كانت مطالبه محصورة في الدستور وفي التسوية بين المصريين والأتراك من رجال الجيش. والأحزاب والهيئات التي جاءت بعد ذلك كانت تكرس مطالبها حول مطلب واحد. أما حزبه فكان أول الأحزاب التي وضعت لها برنامجًا مفصلًا يتناول مرافق البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية كلها، لتسلك الأحزاب الأخرى نهجه من بعده. من هنا زاد تخوفي ووجدت أن توليه حكم مصر لن يجعله منحازًا بالضرورة إلى ما نهدف إليه من وجودنا وسيطرتنا على هذا البلد. وجدت أني سأحتاج لمناقشة مستفيضة مع السيد «سي» فيما يخص هذا المرشح وإن كنت ختمت تقريري بتوصية باستبعاده.

مع دخول القطار محطة برمنجهام لملمت أوراقي وبدأت أستحضر الخطة التي أعددتها لمقابلتي مع اللورد ألبرت هارفي. كنت أتذكر من وقت تعاملت معه أثناء خدمتي بالبحرية كيف كان مباشرًا في أسلوبه حد الوقاحة بعض الأحيان. توقعت أن لا يستسيغ مساءلتي له وأن يكون عنيفًا في رد فعله فأعددت نفسي لأن أقابل ذلك ببرود وألا أكترث لغضبته.

لما وصلت إلى ضيعته ورأيته راعني حالة الوهن التي كان عليها. كانت آخر مقابلة لنا قبل عشر سنوات. تذكرته فيها شامخًا قويًا متحكمًا في زمام الأمور، أما اليوم فقد وجدته وقد شاخ وانكسرت

همته، فلم يستطع حتى أن يقوم من مقعده ليرحب بي. ما إن بدأنا الحديث وجدت صوته على عنفوانه الذي عهدته فأدركت أن ضعفه الجسدي لم ينَل من قوة شكيمته شيئًا.

لم يطل بنا حديث الترحيب والمجاملات إذ عاجلني مضيفي متسائلًا:

- علمت أنك تركت البحرية؛ لذا فأنت لم تأتِ من أجل التعاقد على أسلحة؛ فماذا أتى بك يا سيد بويد؟

- أتيت في نطاق عملي الجديد لأتحرى منك عن سيدة اسمها ليديا ستون، فهل تعرفها؟

- وما أهمية علاقتي بليديا ستون لعملك الجديد؟

تلعثمت في الرد فرفع عني الحرج وفرض سيطرته على جلستنا وهو يقول:

- عمومًا سأحكي لك، فلا يوجد لديَّ ما أخفيه. ليديا هي أول مغامرة نسائية في حياتي، وأي مغامرة كانت يا عزيزي! نحن الرجال لا ننسى أبدًا أول مواطئنا. هي القصة المعتادة بين الفتاة التي تريد أن تقفز أسوار الفقر عن طريق امتطاء ظهر ابن الأثرياء، فينتهي بها الحال ممتطاة دون أن تنال مبتغاها من غِناه.

صمت برهة فلما وجد أني ما زلت منتظرًا المزيد أكمل:

- عرفت ليديا وأنا شاب وقت كانت تعمل مربية في بيتنا وقامت بيننا علاقة. لم أجبرها على شيءٍ ولم آخذ منها شيئًا بغير رضاها. لم أعدها بأي شيءٍ، ولم تطلب هي مقابلًا، وإن كانت بسذاجتها أو بطمعها، لا أدري، ظنت أننا سننتهي متزوجين. قصة عادية جدًا وغير مثيرة على الإطلاق. ألا توافقني يا سيد بويد؟

ثم علت السخرية وجهه وهو يقول:

- أرجو أن تكون هذه المعلومات القيمة عن أول علاقاتي النسائية

مفيدة لعملك!

تمالكت نفسي، وبهدوءٍ شديدٍ ألقيت عليه الكذبة التي عزمت على استخدامها كي أجعله يتكلم:

- سيدي اللورد، أود أن تعرف أني استجوبت السيد موريسون، وأنه حكى لي التفاصيل كاملة.

استفزتني قهقهاته وهي تعلو حتى دمعت عيناه قبل أن يباغتني:

- لا، لم يحكِ لك شيئًا، ولم يشركك أي تفاصيل.. أتدري كيف أعرف ذلك؟ لأن الفأر موريسون خاف وارتعش بعد مقابلتك فأخذ أول قطار بعد أن تركته أنت وأتى إليّ وسرد لي كل ما دار بينكما.. هذه ميزة شراء الرجال يا سيد بويد، مَن باع مرة يظل يحلم بما سيقبض في التالية.. أتى موريسون طامعًا إن أبلغني بتلصصك عليّ أن يحصل على مقابل إبلاغي. وفي نفس الوقت كان مرعوبًا أن يفتضح أمره فيما فعل من قبل فأراد مني أن أتصرف. لا بد وأن أحييك يا سيدني على نجاحك في تخويفه حد ركوضه السريع إلى هنا في سنّه المتقدمة هذه.

مفاجأة وفجاجة كلامه أخرستني تمامًا وشلت ذهني فلم أنطق ليفاجئني من جديد:

- لكني سأحكي لك كل ما تسعى لمعرفته.. سأحكي لك لأني أعرف أنك ستظل تقلب وتبحث وفي الأغلب ستصل إلى معظم خيوط القصة، فأفضل أن تسمعها مني.. أفضل ذلك لأني أيضًا سأؤكد عليك أن ما سأحكيه الآن، لن يكون لك أن تستخدمه أو تخبر به أحدًا على الإطلاق، وسبيلي في ضمان كتمانك أحد بديلين: إما أن تحدد ثمنك، بلا خجل، فلكل رجلٍ ثمنًا، أما إن اخترت التمسك بالفضيلة، فيجب عليك أن تعلم أنك إن نشرت ما ستعلم به الآن، ستكون نهايتك؛ إذ إني وبكل ما أوتيت من قوة ونفوذ، وبمنتهى البساطة، سأسحقك.. الاختيار لك يا عزيزي!

استمر وجومي وأنا أسمعه وبدأ هو ببرود شديد يسرد قصته:

- سأفترض أنك قابلت ليديا، وأنها في الأغلب قالت لك كيف انتهت علاقتنا بحملها. وقد عرضت عليها آنذاك مساعدتها في التخلّص ممًا في أحشائها، ولكنها أصرت على الاحتفاظ به. كم كانت غبية وغير مفهومة وهي تعاند وتصر على عدم الإجهاض في نفس الوقت الذي أيقنت أنه سيكون عليها تركه متى ولدته! عمومًا قبل أن تضع وليدها ذهبت إليها في ذلك الملاذ الكئيب الذي ضمَّها مع مثيلاتها من العاهرات. استجدتني مرة أخيرة لأتزوجها وأعترف بمَن في رحمها، فظللت على موقفي وعرضت عليها من جديد أن أعاونها في التخلص منه. لكن سأصدقك أن هذه الزيارة أثرت فيَّ بعض الشيء، فعزمت على أن أتابع الموقف عن بعد. حين وضعت طفلي وأخذوه منها، وتركت هي المكان، بدأت في متابعته والتأكد من أحواله، فكنت أرسل مبلغًا شهريًا لرعايته. ثم قررت أن آخذ خطوة أخرى فاخترت أحد العاملين بمصانعنا ودفعت له كي يتبنَّاه ويضمه إلى أسرته حتى يحظى بحياةٍ أفضل من حياة الملاجئ. لا تندهش يا سيد بويد، فإن لي قلبًا ولست حقيرًا كما قد تصورني ليديا.

استمر في حكيه المذهل:

- كنت في هذه الأثناء قد تزوجت من ابنة اللورد هاريسون، والتي كانت قد ترمَّلت بعد زيجةٍ دامت ثلاثة أعوام. ليلة زفافنا، وبعد أن انتشيت من مواقعتها، وما زلنا في أحضان بعضنا أول ليلة لنا معًا، همست الليدي في أذني أن بها شكًا أنها عقيم. أخبرتني بأنها حاولت مرارًا أن تحمل من زوجها السابق دون جدوى.

تعالت أنفاسه وتسارعت وصمت برهة قبل أن يعود قائلًا:

- بادلتها سرًا بسرٍّ فأخبرتها بالابن الذي وكلت أمره لأسرة العامل. رد فعلها كان آخر ما تخيلته وأنا أحكي لها أن لي ابنًا غير شرعي. لم أصدق البهجة التي غطَّت وجهها وهي تُنصت إلى قصتي مع ليديا. بدت

كغريقٍ ألقوا إليه بطوق نجاة. لم أكد أنهي حديثي حتى كانت زوجتي مقترحة أن نضم طفلي إلينا ليكون عوضًا لها عن الابن الذي لن تستطيع إنجابه، ويكون لي ابن لن أحظى ببديل له. وهكذا انضم إلينا ابني دانيال قبل أن يتمم سنته الثالثة بشهرين. نسبته لزوجتي كما أصرت وتخلصت من كل الأوراق التي تربطه بليديا واستخرجت بدائل لها تثبت أنه ابني من الليدي. أما كل مَن حولنا فلم يتساءلوا، على الأقل على مسامعنا، عن كيف أصبح لنا ابن في الثالثة بعد أشهر قليلة من زواجنا، ولكنك بالتأكيد تعلم أن هذا ما تشتريه لك الثروة والسطوة: أن تبقى الأسئلة في الأعين تخشى الانزلاق على الألسنة. الوحيد الذي علم بما فعلنا بحكم متابعته لطفل ليديا التي كانت تعمل معه أو لديه كان موريسون. لكنه لم يكن متعبًا ولا مرهقًا لي؛ إذ إننا اتفقنا ضمنيًا على الثمن الذي يضمن تستره. وحين بدأت ليديا تلمح برغبتها في العودة من غربتها لتبحث عن الرضيع الذي تركته دفعت المزيد لذلك الفأر ليخبرها بأن ابنها قد توفي ليثنيها عن مرادها ويغلق ذلك الملف دون معاودة.

أنهى كلامه ولقاءنا مشددًا من جديد:

- ها قد علمت ما سعيت لمعرفته.. أحذرك من أن تنبس بكلمةٍ ممَّا قلته لك..

تبع ذلك بصمت مقصود قبل أن يقول بصوتٍ خفيض:

- لك فقط اختيار من اثنين يا سيدني: تحدد ثمنك، أو أسحقك!

20

القاهرة 12 أبريل 1893

هنري العزيز..

سنوات مرت ولم أكتب لك، ولكن يومًا لم يمر دون أن أفكر فيك. كم تمنيت أن تكون بجواري وأن تشاركني حياتي. بعد أن صدمني موريسون بأن الأسوأ قد حدث لك أصابني يأس رغمًا عني فعددت مراسلاتي معك لا جدوى منها. اليوم وأنا أفتش في صندوقٍ قديم وجدت الحافظة الجلدية التي أحفظ فيها خطاباتي لك. سعدت وحزنت، وضحكت وبكيت وأنا أقرأها، ثم وجدتني أمسك بقلمي وأبدأ الكتابة من جديد لأحكي لك عن حياتي. أعلم أنك في الأغلب لن تقرأ هذه الرسائل يومًا، وإن حدث ووقعت في يد أحد فسيوقن أن امرأة، جُنت لفقد عزيز، هي مَن سطرتها.

ستسعد من أجلي عندما تعرف أن حبًا آخر أصبح يجاور حبك في فؤادي. لقد مسّ قلبي دون أن أدري، وحين استشعرته كان قد تغلغل وتمكن من روحي. لم أظن يومًا بعد ما عانيت من حبي الأول أن يخفق قلبي بذلك الشغف الجديد. سعادة مصحوبة بخفة لذيذة شعرت معها بأنني كطائر طليق وجد سماء مفتوحة لينطلق. وقعت في حب ضد المنطق، وفي غرام آخر مَن يُقبل أن أغرم به. ظننت أني قادرة على إغلاق قلبي ومنعه من أن يُجرح من جديد، فخاب ظني وتوالت دقاته دون أن تكون بي قدرة ولا قدر من مقاومة. لعلي أكتب لك من جديد لأني أحتاج أن أسر بما اضطررت أن أخفيه في طيات نفسي. أخفيته عن العالم كله إلا حبيبي الذي قبل أن نكون سرًا خشية أن تفرقنا نظرات مَن حولنا الرافضة. الوحيدة التي صارحتها بعشقي كانت نازلي فباركت لي وإن أسهبت في توصيتي بألا أجاهر به. قدرت صديقتي أني

أمر بنزوةٍ فأردت أن أستمتع بالمغامرة خفية عن أعين الناس. لكنها لم تكن نزوة يا هنري فما زلت بعد طول سنين على ولهي وشغفي برجلٍ وجدت فيه كمال ما تصبو إليه أي امرأة. حنوّه عليّ وعاطفته نحوي التي لا تفتر أصبحت عوضًا لي عن أي قسوة تعرضت لها ومحت كل مرارة وجرح علق بي.

لا أخفي سعادتي ولا رضائي بما أعيشه الآن بعد معاناة، ولكن يا هنري بي سقم عدم قدرتي على الجهر بالبهجة التي تملأ قلبي. حبي غير مكتمل، وهو مخفي لا يستطيع التنفس على الملأ، ولكن يبدو أن القدر لا يبغي لي هذا الاكتمال. أيام كثيرة أصحو وقد عزمت على إخبار العالم بأني مغرمة. أود لو أحطم القيود التي يمليها قبح رفض غير المألوف ممَّن يلفظون ما لم يعتادوه، ولكني لا أجد في نفسي تلك الشجاعة. أبكي ضعفي وجبني وعدم قدرتي على المواجهة وأنا أخشى أن تختنق بداخلي أغلى مشاعري. أرتعش خوفًا من أن يطبق هذا الكتمان على عاطفتي فتخفت رويدًا رويدًا حتى تنفد. لكني أعود لأصبر نفسي حامدة ما أصبحت فيه من سعادة قربه وحلاوة الثمرة الرائعة التي حملتها منه فغدت الشمس المضيئة لحياتي. اعذرني للإبهام الذي في سطوري يا حبيبي، ولكني لا أقوى على الإفصاح، ولا حتى لك هنا في رسالة أوقن أنها لن تُقرأ يومًا.

تلح عليّ دائمًا رغبة عارمة في أن تكون بي شجاعة وجسارة نازلي، وتصبح بي قدرة على مواجهة العالم كما تفعل. غريب أن تكون نصيحتها لي أن أخفي قصتي، وإن عزوت ذلك إلى درايتها بأني ليست بي قدرة على تبعات الجهر بحالي. يبهرني فيها ذلك الإصرار الذي هو وقودها في الإقدام على ما لم يتعوده المجتمع المحيط بها. لا تكتفي بالحلم بل تقدم في شموخ على تحويله إلى حقيقة. تذكر حين كتبت لك عن صالونات باريس وكيف أعجبتها؟ وقتها أسرّت لي قائلة:

- سيكون لي مثل هذا يومًا من الأيام.. وفي قلب الشرق.

وقد كان يا عزيزي، فهي الآن تستضيف صالونًا أصبح شرفًا كبيرًا أن تُدعى إليه. في البداية ارتفعت حواجب المحيطين اعتراضًا واستهجانًا على ما لم يتعودوه وما رأوا فيه تعديًا على الأصول والتقاليد. استعجبوا حينذاك أن تسعى امرأة لتتبوأ مكانة ليست لها في مجتمع اختار للنساء مرتبة خانعة لا يصح معها أن تتقدم الصفوف. وحين شرعت في تحقيق ذلك وسمته بأسلوبها الخاص والمميز الذي ينضح ببصماتها. دعني أصف لك ما ينتظرك حين يسعدك حظك فتكون من بين حضور صالون نازلي فاضل.

تدخل قصر هنري فيستقبلك اثنان من الأغوات. أحبت نازلي دائمًا أن تسمي أغواتها على أسماء الأحجار الكريمة. الأغوان المفضلان لديها أسمتهما ياقوت ومرجان. عندما تمشي من البوابة إلى القصر تمر بين زهور وأشجار وارفة، تحيط بك القطط وهي تتمطى في كسل وقد تتمسح إحداها في ساقك. سرعان ما يعلن أحد الأغوات وصولك، ولا بد أن تنتظرها قليلًا قبل أن تطل عليك باسمة متحررة، رائعة الجمال بحضورها وأثرها الطاغي. عمدت نازلي إلى أن يكون طراز غرفة الاستقبال عاكسًا لطبيعتها وشخصيتها. مزجت عن قصد بين كلٍ من الطابعين الشرقي والغربي، قناديل تُضاء بالكهرباء ومقاعد من طراز لويس الخامس عشر محفوفة بزخارف من عصر المماليك. وتزدحم جدران الغرفة الأربعة بصورها الشخصية مع العائلة المالكة البريطانية، و إلى جوارها صورة أبيها مع السلطان العثماني. ويلي ذلك الكثير من الصور لها مع شخصيات العصر، بداية من اللورد جرنفيل، قائد الجيش المصري، إلى اللورد كرومر، وغيرهما من البريطانيين المهمين. لم تكتفِ بصور الأجانب فزينت الجدران بصور أصدقائها من أشراف المصريين، وفي مقدمتهم الخديوِ توفيق والخديوِ عباس وإلى جانبهما شريف باشا ومصطفى فهمي باشا وغيرهم من الأشراف، وفي وسط ما علقته من صفحات المجلات المصورة التي تسجل أهم الأحداث الفائتة تجد صورتها مع صديقها الأثير الشيخ محمد عبده.

ويا لحظك يا حبيبي لو أصبحت صديقًا لنازلي! صداقتها لا تتوقف عند ود اللقاء أو ابتسامة خافتة عند الفراق، كما عندنا نحن الإنجليز، بل تتعدى ذلك فيصبح لك ظهر ترتكن إليه وقت الشدة. في حالة محمد عبده لم تألُ جهدًا حين نفوه في محاولة رفع الحكم الجائر عنه. سنوات متصلة وهي تسعى لدى الخديوِ توفيق من أجل أن يرق قلبه ويعفو عنه. في كل لقاء لها مع كرومر في تلك الفترة تسهب في الحديث عن الشيخ وتضغط على اللورد من أجل أن يدعم طلبها بعودته. أستطيع أن أقسم إن الفضل لها وحدها دون غيرها في الموافقة على عودته إلى مصر بقرار خديوي قبل وفاة توفيق. ولعل هذا سبب ذلك العرفان الدفين الذي تشع به نظرات الشيخ لنازلي. لولا مهابة عمامته لكنت ظانة أنه مغرم بها. أحيانًا أشعر بأن عينيه تخونانه مفصحتين عن ذلك الافتتان. وهي الأخرى أجد بها رقة شديدة حين يأتي ذكره. أعتقد أن وضعهما منعهما من تحري أكثر من الصداقة التي بينهما. منذ وفاة الخديوِ توفيق تبدلت أدوار الصديقين، فأصبح الشيخ محمد عبده هو المقرب لحاكم مصر الجديد، ولم تغْد نازلي من المقربين. حفظ الخديوِ الجديد جميل الشيخ في تمكينه من الحكم. الحكاية يا عزيزي أنه لما توفي توفيق لم يكن ابنه عباس قد بلغ السن القانونية للجلوس على العرش، لكن الشيخ كان أحد مَن أشاروا باستخدام تقويم المسلمين لحساب عمره. تقويمهم هذا بحساب دورات القمر لا الشمس كما فهمت. حين اتبعوا نصيحة الشيخ وزملائه أثبتوا أن عباس أتم ثمانية عشر ربيعًا ليتولى الحكم. لا يقلقني يا هنري إن كان الشيخ أو نازلي أقرب أو أبعد عن الخديوِ، لكن ما يثير إعجابي حقيقة هو متانة علاقتهما وإعجابهما الذي لا يخفيانه ببعضهما.

قد يظن البعض أن الصداقة تتحول لذكرى حين يرحل أحد طرفيها، لكن في حالة نازلي لا تنتهي علاقاتها بوفاة أصدقائها، تظل تحارب وتناوش من أجل حقوق أصدقائها حتى لو كانوا فارقوا دنيانا. أكبرت فيها ما فعلت وما استمرت تفعل من أجل إنجي هانم زوجة الخديوِ السابق محمد سعيد حتى بعد رحيلها. كانت صهباء ذات جمال أخاذ

وجاذبية طاغية، طولها الملحوظ وبهاء طلعتها جعلها تبرز في أي مجتمع تحل فيه فتتصدره. اعتبرت نازلي بنتها، التي لم تسعد بولادتها، فارتبطتا ببعضهما وقدمتها في تجمعات الأوربيات التي اشتهرت باستضافتها في قصرها. هي أول مَن شجعت نازلي على تدشين صالونها وساندتها حين اشتدت عليها الانتقادات. لكن إنجي لم تكن على وفاق مع الأسرة العلوية. لم يتقبلوها لأنها كانت متبناة ولفظوها لما طُلقت من زوجها قبل وفاته. حتى أعمالها الخيرية المتعددة ظلوا يحاولون طمسها، فأزالوا اسمها من على الجامع الذي شيدته في الإسكندرية، ونسبوا إنشاءه إلى جشم أفت هانم زوجة إسماعيل. لم ترضَ نازلي بهذا الظلم حتى بعد أن توفيت الهانم. أصرت على إعادة تسميته باسم صديقتها ونجحت في استصدار قرار بذلك إحياءً لذكراها. ولا تتوقف مواهب صديقتي العزيزة عند ذلك، فلديها مَلَكة الاكتشاف. تعجبت من اهتمامها الزائد بشخص من أتباع الشيخ محمد عبده يدعى سعد زغلول. أتذكر جيدًا حين انتحت به جانبًا في ثاني زياراته بصحبة الشيخ. دفعني فضولي ذلك اليوم لأن أسألها بعد أن غادروا عمّا دار بينهما. ضحكت مجلجلة وهي تخبرني بأنها اقترحت عليه أن يرمي عِمته وقفطانه وأن يلبس بدلة فرنسية. لم أصدقها حتى جاء يزورنا من جديد وهو غير مقفطن ولا معمم. بدا وسيمًا في حُلة باريسية أنيقة متناسقة مع رباط عنق رمادي أنيق. تخطى تأثيرها مظهره إذ امتدت أناملها لتعيد تشكيل جوهره. بالأمس كان هذا الحديث بيني وبينه. وصدق أو لا تصدق أنه دار بلسان فرنسي طليق من جانبه:

- لكنتك كما الباريسيين.. كم تغيرت منذ زيارتك الأولى!

- الفضل في ذلك للأميرة، فهي مَن أصرت على أن أتعلم اللغة وأغير من هندامي.

قالها وبه شيء من الخجل فرددت عليه لأطمئنه:

- هي فعلًا لها ذلك الأثر في الناس.. تنصح فيستمعون إليها.

- هي فعلًا غيرت منحى حياتي.. حولتني من أزهري، سعيد بلا شكوى، إلى متحدث بالفرنسية وضيف على صالونها مع عظماء البلد.. لها فضل لن أنساه ما حييت.. أسعى هذه الأيام لتنفيذ توصية جديدة لها بأن أرحل إلى الجامعة في باريس لأحصل على شهادة في الحقوق.

لم يتوقف سعد عن الحديث، فأسهب موضحًا أثر صالون نازلي في نفسه. كان متيمًا بما يدور فيه من مناقشات في مناحٍ شتَّى. أبهره وجوده وسط كوكبةٍ من رجالات العصر، على رأسهم مُعلمه محمد عبده، والباشوات حسين رشدي ومحمد شريف ونوبار وغيرهم من علامات العصر. أحب كثيرًا وجود البريطانيين مثل كرومر وكتشنر، وأكد لي أن وجودهم جعل المناقشات الدائرة ثرية. قال لي إن أفكاره وتوجهاته تغيرت ممًا سمعه من مناقشات سياسية بين المصريين والبريطانيين. لا ندري يا هنري بالعظمة ونحن بالقرب منها، ونحتاج أحيانًا لسماع وصفها من الغير. هذا بالضبط ما شعرت به وسعد زغلول يتكلم عن صالون نازلي. لعل مجرياته أصبحت معتادة لي فلم أنتبه إلى عظم أثره السياسي والاجتماعي في صفوة المجتمع المصري. نبهني حديثه إلى أني محظوظة أن تظللت بما لصديقتي من جلال.

هذه هي نازلي أميرتي وصديقتي التي تترك أثرًا حيثما وأينما نزلت وحلّت. شخصية دانت لها مقومات العظمة فقررت أن تُعمل ما حباها به الرب في إحداث فرق في عالمنا. أشعر أني أطلت عليك يا حبيبي. قبل أن أنهي خطابي أود أن أقول لك إني لا أريدك أن تظن للحظة أنه قد أصبح لك بديل أو بدائل في قلبي. ستظل دائمًا وأبدًا الأول في خاطري ولن يجيء يوم أبدًا لا يختلط فيه نبض فؤادي مع تفكيري بك.

أحبك.

ليديا



21

لندن 25 يونيو 1897

هنري العزيز..

كل مرة تطأ قدماي لندن أشعر وكأنها المرة الأولى فيها. لم يكن هذا إحساسي وأنا على متن السفينة التي حملتنا من الإسكندرية إلى ليفربول. كنت في غاية السعادة بمرافقتي لنازلي تلبية لدعوة الأميرة ألكسندرا زوجة ولي عهد بريطانيا لحضور احتفالات اليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا. ظننت أن زيارتي الثالثة لعاصمة الضباب ستكون مختلفة، ولكن وكالعادة ما إن وصلنا حتى تملكني المزيج المعتاد من الغربة والقلق اللذين لا أجد لهما تفسيرًا.

لا تسئ فهمي يا هنري، فقد استمتعت بالرحلة حتى الآن، ولكن يظل شعور عدم الارتياح مصاحبًا لي. لا أدري ما بيني وبين لندن، إذ يبدو أنها لن تكون يومًا محل راحتي. هذا برغم أن في زيارتي الحالية لا أستطيع شكوى من الدعة والوقار التي استقبلتني به. أبهرني فندق السافوي الذي نقيم فيه. تخيل أن جميع مصابيحه مضاءة بالكهرباء! أما الأعجب فمصاعده التي تعمل أيضًا بالكهرباء. أقول لك سرًا: قلبي ينخلع من صدري كلما صعدت بأحد هذه المصاعد إلى الدور الثالث حيث غرفنا. نازلي تسكن في الجناح الأميري وأنا بالغرفة الأصغر الملحقة به. وحين أقول أصغر لا أريد لخيالك أن يجعلك تظنها صغيرة، فهي تكفي أسرة من خمسة أفراد للعيش في بحبوحة. هل ستصدقني لو قلت لك إن أغلب الغرف بها دورات مياه خاصة بها تجري فيها صنابير مياه باردة وساخنة؟ كل مرة أدلف إلى غرفتي أزداد اقتناعًا بأن بناة هذا الفندق لم يتركوا فرصة لأحد كي يضيف شيئًا إلى فخامته في المستقبل.

هذه المرة لم تصطحبني نازلي كصديقة أو رفيقة ولكن كوصيفة. لم أجد بأسًا في أن أكون موضع تفاخر لها أمام أصدقائها من العائلة المالكة البريطانية بأن وصيفتها من أهل بلدهم. اقتصر دوري منذ يوم وصولنا على معاونتها في الاستعداد لحضور مأدبة تلو الأخرى في باكينجهام ووندسور أو في قصر لورد أو آخر من معارفها.

نازلي كانت مملوءة حماسًا لحضور احتفالية فيكتوريا، أو كما يحلو لها أن تسميها أقوى امرأة في العالم، بيوبيلها الماسي. ظلت تكرر لي إعجابها بالملكة التي تحكم جزءًا من كل قارة في العالم والتي ارتدت التاج البريطاني لأطول مدة في التاريخ. طوال زيارتنا للعاصمة وهي تعيد على مسامعي: «ملكة ربع سكان العالم يا ليديا». لم يكن الاحتفال لمرور ستين عامًا على جلوسها على العرش بقدر ما كان مهرجانًا للاحتفاء بجواهر التاج الحقيقية لبريطانيا: مستعمراتها، كما أعلن تشمبرلين وزير المستعمرات في حديثه لإحدى الصحف.

أمس كان درة الاحتفالية ويوم الاحتفاء الشعبي. صحونا لنجد لندن وقد اكتست ببحر من الألوان الزاهية جعلت غيوم سمائها تنزوي. رفرفت أعلام الإمبراطورية من الشرفات وأحاطت بها أقواس الزهور. احتشد الآلاف على أرصفة لندن تحسبًا للعرض الملكي. توهجت الوجوه مشرقة، ما بين أرصفة الشوارع ونوافذ المنازل وأسطحها، وكلها تنبض بالفخر الوطني. انتشر بين الوقوف باعة أعلام اليوبيل وغيرها من الهدايا التذكارية. في حين حاوط الجموع سياج بشري من الجنود ليؤمِّنوا طريق الموكب المنتظر. في الحادية عشرة صباحًا سمعنا دوي طلقات المدافع في إشارة إلى بدء تحرك الموكب الملكي. ونحن واقفون في شرفة جناحها علّقت نازلي على ذلك ضاحكة: «يبدو أن هدير المدافع أفزع السحب فأفسحت للشمس كي تسطع».

جلست الملكة في عربة مفتوحة تجرها ثمانية جياد أيرلندية ضخمة. لاحظت أنها لم تتخلَّ عن ثيابها السوداء التي داومت على ارتدائها حدادًا على رحيل زوجها ألبرت. عوض عن ذلك الألوان الرائعة للزي

الرسمي للجيش الإمبراطوري. علت أصوات المتجمهرين كالرعد بهتاف: «حفظ الرب الملكة.. حفظ الرب الملكة». حين مرت أمامنا بدا على وجه فيكتوريا التأثر بمحبة شعبها البادية، وبدا لي أنها تمسح الدموع من عينيها من حين لآخر.

عندما حلَّ الظلام، وفي آنٍ واحد، تم إشعال سلسلة من دوائر اللهب في جميع أنحاء العاصمة. استمر الهتاف والغناء طوال الليل ووزعت الجعة والحلوى التي تبرع بها أثرياء الإنجليز تحية للملكة المعظمة. بالنسبة لي، وبالتأكيد لكل شخص في لندن احتفل ذلك اليوم باليوبيل الماسي، بدا كما لو أن الشمس لن تغرب أبدًا على الإمبراطورية البريطانية.

في هذا المساء أيضًا حققت انتصارًا صغيرًا على نازلي. بعد مرور الموكب الملكي جلسنا في الشرفة لنستمتع بكؤوس النبيذ المعتق، وهي كعادتها كانت تدخن بشراهة. استمر حديثنا عمَّا شهدناه من استعراضات طوال هذا اليوم. أردت أن أختبر معلوماتها حين سألتها إن كانت تعرف مصدر كلمة يوبيل. تبرمت وعلا الضيق وجهها وهي تحاول إيجاد إجابة. لم تعتد الأميرة ألا تجد ردًا وهي التي تفخر دائمًا بسعة معلوماتها وعمق ثقافتها. تبسمت لما أصرت على ألا أبوح بالإجابة وهي مستمرة في التفكير والتقليب في ذهنها. في النهاية وبوجهٍ مهزومٍ سمحت لي بأن أرد على تساؤلي. ضحكت كثيرًا قبل أن أسمعها آية العهد القديم التي تقول: «فِي سَنَةِ الْيُوبِيلِ هذِهِ تَرْجِعُونَ كُلٌّ إِلَى مُلْكِهِ». طرت من السعادة أني وربما للمرة الأولى تفوقت عليها وتلذذت بغيظها الذي تبدى. فنازلي تعتز جدًا بتنوع قراءاتها وغزارة معلوماتها وتهوى استعراض ذلك في أحاديثها معي.

قل لي يا هنري، هل قرأت الإنجيل؟ وهل تواظب على الذهاب إلى الكنيسة؟ لو أنك تفعل ذلك فستتفهم دهشتي من غرابة استخدامهم لهذه الكلمة. فالآية وما تلاها تدعونا إلى رد الحقوق لأصحابها والمساواة بين البشر في عام اليوبيل. يحثنا الرب فيها على رد الأراضي

لأصحابها وعتق العبيد. ولكن الإمبراطورية البريطانية بدلًا عن ذلك احتفلت هذه الأيام بما اغتصبت من أراضٍ ومَن استعبدت من بشر. وفي الأغلب في اليوبيل القادم سيحتفلون بمزيدٍ من الاستعمار وتسيد أقوام في أراضيهم البعيدة. لكن هذا حال البشر، فالبقاء للأقوى وإرشادات السماء يلجؤون إليها فقط عند حاجتهم لتبرير أفعالهم.

هذا الصباح استأذنت من نازلي أن أذهب للقاء إحدى صديقاتي. كذبة بيضاء، تليق بوصيفة، اضطررت لها، إذ لم يكن ممكنًا أن أخبرها بأني سألتقي موريسون. رتبنا للقائنا لما أخبرته بأني سأكون في لندن.
وصلت إلى مكتب الشئون الخارجية في الموعد، واستقبلني عند البوابة وأخذني إلى نفس مكتبه القديم الذي قابلني فيه أول مرة التقينا. لم يكن بي ارتباك لقائنا الأول. لاحظت أن الرجل لم يتغير به شيء سوى الشيب الذي تغلب على رأسه. كان ودودًا جدًا في حديثه وهو يثمن ما أقوم به من عمل، وكيف أن ما أرسله من معلومات مهم ومفيد جدًّا لرفعة وطننا. صبرت على حديثه، الذي لم يحرك مشاعري كمراده، وحين فرغ بادرته بالسؤال عنك. تغيرت قسماته وعلت وجهه ملامح عدم الارتياح من تساؤلاتي. بدأ في المراوغة والتهرب من أي إجابة مباشرة. لكني كنت عازمة على الحصول على إجابات. استمررت في إصراري واستمر في تهربه وساد التوتر بيننا. بعد كثير من الشد والجذب أعاد على مسامعي من جديد ما أخبرني به من قبل باحتمالية رحيلك عن الحياة. تفاجأ بدموعي تنهمر بغزارة بعد ما قاله، فاضطرب قليلًا وأكد لي أن ذلك مجرد احتمال. لا أدري إن كان أراد أن يريحني أو يتخلص مني حين تراجع ليقول لي إن هناك احتمالية أكبر أن يكون مَن تبنوك قد هاجروا إلى إحدى المستعمرات مثل أستراليا أو نيوزيلاندة. في رأيه أن الشواهد تشير إلى ذلك نتيجة اختفائهم المفاجئ، وأن كثيرين حين يقدمون على مثل هذه الهجرات يغيرون أسماءهم بغرض طمس تاريخهم هروبًا من ديون أو ما يشينهم ممَّا تركوه خلفهم.
تمسكت بالأمل الخافت الذي أعطته لي نظريته فسارعت بإنهاء اللقاء

وغادرته.

في طريق عودتي قررت أن أمر بپادينجتون لأرى وأطمئن على روزماري. الأيرلندية هي صديقتي الحقيقية والتي لم تتخلَ عني يومًا. بها نقاء وصفاء جعلاها الأقرب إلى قلبي فأصبحت بديلة لعائلة لم أسعد بالتمتع بالقرب منها والتواصل معها. صداقة وصفتها سحرية بمكونات مثالية. لن أنسى لها ما حييت وقوفها إلى جانبي في زيارتي السابقة إلى لندن. تلك الزيارة التي لم يعلم أحد من أهل المدينة سواها بوجودي بها. استضافتني لأشهر حتى انقضى الغرض من بقائي وعدت من جديد إلى مصر. لم تتساءل ولم تلُمني، وبوفاء شديد وقفت إلى جانبي حتى اطمأنت تمام الاطمئنان على سلامتي وصحتي. صداقة خالصة بلا أحكام مسبقة ولا تكلُف ولا حاجة لتبريرات. حين رأيتها في الفندق طال احتضاني لها ودموعي لا تتوقف وهي تربت ظهري بحنان. احترت في سبب بكائي إن كان سعادة باحتمالية أن تكون أنت حي في أرضٍ بعيدة، أم جزعًا على مَن اختار أن يخطف فؤادي ويرتحل إلى السودان.

ثرثارة أنا اليوم يا حبيبي فتحملني. أينما كنت أريدك أن تعلم أنك دائمًا على بالي لا تبارحه. أحبك وسأظل أحبك حتى ذلك اليوم الذي نلتقي فيه على الأرض أو في السماء.

المخلصة لك

ليديا

22

مفكرة سيدني بويد

9فبراير1914

جافاني النوم طوال الليل بعد عودتي من برمنجهام. قمت مبكرًا مقررًا أن أذهب للقاء ليديا. كل خطوة خطوتها إلى پادينجتون زادت من عزمي على إخبارها بما أصبحت أعرفه. كنت متحمسًا لإسعادها وطمأنة قلبها بعد كل هذه السنين بأن ولدها حي وفي خير حال. حين وصلت إلى الفندق اتجهت إلى الباب الجانبي ودلفت إلى الداخل وسط صخب استيقاظ العاملين واستعداداتهم لبدء يوم عمل جديد.

كالعادة فتح لي رزق الباب ووسع لي مرحبًا كي أدخل. حين وجدتني ليديا أمامها في تلك الساعة المبكرة علت وجهها الدهشة والمفاجأة وإن لم يمنع ذلك ترحيبها المعتاد والمحبب بوجودي.

ساد الصمت الغرفة وأنا أحاول أن أبدأ في قول ما أتيت لإخبارها به. كلما فكرت في كيفية مناسبة لما سوف أحكيه وجدت عقلي يستوقفني. غلبني التردد وزاد تشخيصي في وجهها وأنا عاجز عن النطق. راحت مني الثقة التي كنت عليها حين قررت أن من حقها أن تعرف ما توصلت إليه. علا في رأسي صدى صوت اللورد هارفي وهو يهددني: سأسحقك.

غلبني شيء من الخوف مغبة أن أتحدى ذلك الرجل ذا السطوة. استأت من حالي والجبن الذي اعتراني. فاوضت نفسي كثيرًا قبل أن أقرر التروي وإعادة حساباتي. وجدت مخرجًا من الخجل الذي أصبحت به لما أسعفني تفكيري لسببٍ معقولٍ لزيارتي لها في هذه الساعة المبكرة. تغلبت على تلعثمي وأخفيت ارتباكي وأنا أسألها:

- أحتاج معاونتك في تقرير أعده عن مصر.. هل لديكِ معلومات عن محمود باشا سليمان؟ هل تعرفينه؟

- ملك الصعيد؟

- ماذا؟

- هذا هو اللقب الذي يطلقونه عليه.. لم أقابله ولكن أحد رواد صالون نازلي حكى عنه في إحدى الأمسيات، دعني أتذكر اسمه وقصته..

سكتت لحظات قبل أن تسترسل دون توقف:

- لا أذكر الآن اسم صاحب القصة.. لكني أتذكر أنه كان أحد مُلاك جريدة من التي سهل اللورد كرومر إصدارها لتكون لسان حال الإنجليز في مصر والمدافعة عن وجودهم والمناهضة للصحف المصرية. وبسبب ذلك الموقف المنحاز لبريطانيا تكرر تعرض مقر الجريدة للهجوم وتحطيم محتوياته. لما جاء موعد جني القطن من أراضي هذا الرجل، قاطع الفلاحون العمل عنده ورفضوا الجني حتى أوشكت الأرض على البوار.

توقفت برهة كما لو أنها تسترجع تفاصيل القصة التي ترويها، ثم استكملت حديثها من جديد:

- لم يجد أمامه حلًا سوى الإسراع إلى محمود سليمان باشا ليترجاه أن يساعده، برغم أنهما لم يكونا صديقين في يوم من الأيام. استجاب له الباشا شريطة ألا يعاود الإساءة للشعب بجريدته، وألا يعارض القضية الوطنية. طلب منه أن يعود إلى داره على وعد أن يتم جمع قطنه. صدق الرجل وعده وبدأ الجني فعلًا اعتبارًا من اليوم التالي.

عاودت الصمت قبل أن تغمغم وكأنها تحدث نفسها:

- لم يطل التزام الجريدة بوعد صاحبها، إذ ضمن تمويل السفارة البريطانية لملاكها عودتها سريعًا إلى سابق عهدها..

أكدت ليديا بما حكته توجسي من محمود باشا سليمان وعدم ارتياحي لتوجهاته الانغلاقية وعدائه للتمدين الذي نحاول أن نجعل مصر عليه. أعجبني أن لديها قصصًا لا أجدها في الملفات التي عكفت على دراستها عن مصر ورجالها. كما شجعتني الأريحية التي سردت بها القصة على الاستزادة، فسألتها إن كانت تعرف الأمير حسين كامل. فاجأني رد فعلها، إذ كسا الحزن وجهها واغرورقت عيناها قبل أن تبدأ الدموع تنسال على وجنتيها. استغربت نفسي جدًا وأنا أقوم إلى حيث جلست لأبدأ في تربيت كتفها، ومن بعد ذلك وجدت نفسي أحتضنها وأنا أكفكف دموعها. حين توقفت عن بكائها الصامت وجدت نفسي في موقف غريب واقفًا محتضنًا سيدة عجوزًا لم أكن أعرفها قبل أسبوع. سارعت إلى العودة إلى مقعدي وأنا أشعر بحمرة الخجل تغطي وجهي.

- آسفة على انفعالي، ولكنك ذكرتني بنازلي لما سألتني عن حسين كامل أتعلم أنه آخر مَن قابلت ليلة وفاتها في ديسمبر الماضي. قضى معها أكثر من ثلاث ساعات، وبعد أن غادر دخلت سريرها لتنام نومة لم ولن تفيق منها أبدًا. كان أقرب أفراد العائلة إليها، وكانا دائمًا يتمازحان عمَّن فيهما الأكبر؛ إذ إنهما مولودان في نفس العام. أتذكر جيدًا أن نازلي تضامنت معه لما توترت علاقته مع الخديوِ عباس بسبب الخلاف فيمَن يكون بيده أوقاف الأسرة العلوية. فالأمير حسين كامل كان وقتئذ أكبر الأسرة سنًا، فكان من حقه أن يلي أمر أوقافها، ولكن الخديوِ وإن كان أصغر سنًا من الأمير، إلا أنه هو حاكم مصر ومدبر شئونها، ومن ضمن تلك الشئون أوقاف الأسرة العلوية. تمادى النزاع بين الخديوِ والأمير حتى وصل إلى المحاكم الشرعية وانحازت نازلي بالطبع إلى جانب حسين كامل حتى إنها أصرت على أن يتولى محاميها محمد بك فريد القضية وتكفلت بأتعابه.

سكتت قليلًا فبدا لي أنها تسترجع مزيدًا من التفاصيل. لم يطل صمتها إذ عادت قائلة:

- كان هذا متزامنًا مع تعيين اللورد كتشنر مندوبًا ساميًا لبريطانيا في

مصر، وقد كانت العلاقة بينه وبين الخديوِ على غير ما يرام، وكثيرًا ما وقع الخلاف والجفاء بينهما. وفي الوقت ذاته كانت علاقته وثيقة بنازلي من وقت أن كان قائدًا للحملة على السودان.

اقشعر بدني حين ذكرت الحملة على السودان، وأظنها لاحظت ما بي من وجل ولكنها تابعت:

- طلبت نازلي من كتشنر أن يمد يد العون للأمير في صراعه مع الخديوِ. استجاب لطلبها بالفعل وذهب لزيارة حسين كامل في منزله. حين قال له إنه حضر خصيصًا لكي يعرض عليه أي خدمة يحتاجها فيما يخص الخلاف على أوقاف الأسرة العلوية، استوقفه حسين كامل على الفور وقال له إنه يشكره على ما يبديه نحوه من عواطف نبيلة، ولكن فيما يخص النزاع القائم بينه وبين ابن أخيه الخديوِ عباس، فإن نفسه وماله وولده فداء لحاكم مصر. ثم أكد له أنه فيما يتعلق بالأوقاف فليس هناك ما يدعو لتدخل الغرباء في أمر عائلي.

سكتت ليديا لحظات، ثم استرسلت في حكي المزيد من خلفيات قصتها:

- لقد تسبب صده لكتشنر بهذه الصورة في حرج كبير لنازلي التي عاتبها اللورد على الحرج الذي أصابه. وكما عتب عليها كتشنر، لامها الأمير على عدم مشاورته قبل دعوة البريطاني للتدخل. وقد حدث بينهما جفاء بسبب هذه الحادثة وإن لم يستمر طويلًا.

لم يطل حديثي مع ليديا بعد ذلك، إذ شعرت أنها عاودها حزنها على فراق رفيقة عمرها. استأذنت منها وتوجهت إلى مكتبي وقد علق بذهني ما سردته عليّ، سواء عن محمود باشا سليمان أو الأمير حسين كامل. لكن لم يكن ذلك ما شغلني وأنا في طريقي. كنت مستغربًا نفسي وما بي من مشاعر ناحية هذه السيدة. أي هاجس جعلني أحتضنها وأتأثر إلى هذا الحد لبكائها. منذ التقيتها أول مرة وبي رقة شديدة نحوها. لم أجد تفسيرًا يريحني لتلك العاطفة التي غلبتني نحوها. هل بسبب تلك

اللمسة الحانية ليدها على خدي في أول مرة رأيتها؟ لمسة لم أختبر مثلها من أمي القاسية التي لم تلامس وجهي إلا صفعًا منذ وعيت. لا أذكر حضنها فلا أستطيع أن أتشوق إلى ما لم أختبره. كل ما تحمله لها ذاكرتي كطفل هو متتاليات من الغلظة. لم تكن طفولتي ناعمة ولم يكن بها أي حنو من أم لم تحب زوجها يومًا، وكنت أنا فيما يبدو الثمرة التي تبغضها لارتباط مع مَن لم تشعر نحوه بأي عاطفة. وحين فاض بها هجرتني وأبي وأنا ما زلت طفلًا لتهرب مع حبيبها إلى أقاصي الأرض في أستراليا. أظنني وليديا وجد كلانا في الآخر نوعًا من العوض عمّا افتقد. تقارب سني مع رضيع تركته وتماثلت هي مع أم هجرتني.

حين وصلت إلى المكتب عكفت على الانتهاء من كتابة تقريري. وجدت نفسي منحازًا إلى الأمير حسين كامل كالاختيار الأوفق لتولي عرش مصر. فهو رجل دولة وحُكم كما يقول الكتاب. تعليمه أوربي إذ استكمله في باريس مقيمًا فترة وجوده في فرنسا في بلاط الإمبراطور نابليون الثالث، صديق والده إسماعيل. وكان مرافقًا ومترجمًا للإمبراطورة أوجيني قرينة نابليون الثالث عند حضورها افتتاح قناة السويس.

اهتممت في تقريري بتعديد المناصب التي تولاها منذ عودته إلى مصر بعد انتهاء تعليمه. توجست أن يفوت رؤسائي خبرات الرجل التي جمعها من توليه عدة وزارات أثناء حكم أبيه فأسهبت في ذكرها. كنت معجبًا بأنه حفظ عهده لوالده على ألا ينازع أخاه الحكم. استغربت وإن أكبرت حضوره تنصيب توفيق كخديوِ لمصر برغم أن الأخير كان أول قراراته نفي حسين كامل مع إسماعيل إلى إيطاليا. وحين استدعاه توفيق للعمل معه لم يتردد في العودة إلى مصر. لم يفتني أيضًا أن أضمِّن تقريري مجهوداته لإنشاء الجمعية الزراعية، وما قدَّمه من أجل إصلاح أحوال الفلاحين حتى لقبوه بأبي الفلاح. لم يُخلع عليه هذا اللقب من فراغ، بل بسبب شعبيته المتزايدة في القطر المصري.

ولكي أثبت وجهة نظري بأنه الأكثر جاهزية لتولي عرش مصر، مع

بدايات استقلالها عن العثمانيين، لم أنسَ أن أضمِّن ما كتبت علاقة الصداقة التي نشأت بينه وبين الملك إدوارد السابع ملك بريطانيا إبان زيارته لمصر. أضفت أيضًا أن انحيازاته لنا كانت واضحة وهو رئيس لمجلس شورى القوانين، قبل أربع سنوات، وهو يحاول تمرير مد امتياز قناة السويس كطلبنا. وقد واجه بسبب موقفه هذا كمًّا هائلًا من الهجوم عليه حتى اضطر للاستقالة من المنصب.

حين انتهيت من كتابة ما توصلت إليه في بحثي فيما يخص المرشحين سارعت بتسليمه في مكتب السيد «سي». ارتحت لأني انتهيت ممَّا كُلفت به، ولكن أكثر ما أسعدني اليوم كان توصلي إلى ما أظنه حلًا أمثل لمشكلة ليديا مع الأرمن. عدت من جديد إلى مكتب المدير طالبًا من السكرتير تحديد موعد لأقابله كي أعرض عليه فكرتي.

23

الإسكندرية 10 يناير 1914

هنري العزيز..

أكتب إليك وقد انفطر قلبي على فراق نازلي. أكتب ودموعي تأبى أن تتوقف على فقد مَن أظلتني بجودها وحبها واحتضنتني من يوم عرفتها حتى لحظة رحيلها. أكتب وأنا موقنة بأني لن أجد حروفًا قادرة على أن توفيها حقها، أو كلمات تعبر عن فجيعتي وأنا أراها تأخذ آخر أنفاسها. من وقت كنت فتاة في المدرسة تعلقت بقصيدة شكسبير عن صديقه الذي رحل فحفظتها، لكني الآن فقط، تغلغلت بوجداني نجواه وهو يتأوه لفقدان يماهي مصابي. لو أن تقاليد الشرق تسمح لكانت هذه الأبيات مرثيتي لأميرتي الراحلة:

حين يسود هدوء الفكر الجلسات

فأستدعي ما مضى من لوعات

وأتنهد على ما افتقدته من تمنيات

ومع أحزانٍ قديمةٍ تضيع أعز الأوقات

يُغرق البُكاء عيني بمستغرب التدفقات

لِفَقْدِ أحبَّةٍ غادروا في غفلةِ الظلمات

أبكي من جديدٍ محبةً استحالت حسرات

وعلى ما توارى عن البصر أئنُّ بالآهات

حينئذٍ أنتحب على جور بعد فوات

ومن حزنٍ إلى حزنٍ، تتعالى الزفرات

وفي حساب الحزن تتراكم الحسرات

لأسدِّد من جديدٍ ما سدَّدته مرات

ولكن يا صديقي، ما إن تفكرت بك لحظات

تبدَّدت كل الأحزان وزُدِّت لي كل الخسارات

هناك مَن يُرسَلون إلى العالم نباريس فلا ينطفئ ضياؤهم مع الرحيل، ونازلي من تلك الزمرة يا هنري. لم أختر عائلتي ولكني حُبِيتُ بها رفيقة عمر وروح. لم أدرك حين دخلت قصر أبيها في القسطنطينية أني بصدد ارتباط مع هذا الكم من العظمة التي جاورته من يومها. ما زلت لا أستطيع تصور العيش دونها، تصدع قلبي ولا أظنني قادرة على لملمة حطامه. ستعيش في فؤادي وسأعيش في ذكراها حتى يأتي يوم أرحل آملة أن تكون في استقبالي عند وصولي إلى السماء.

عاشت حياة نبيلة، وحين غادرت فعلت ذلك بكثير من الجلال. ليلتها زارها ابن عمها حسين كامل فقضى معها ساعات يتسامرون ويسترشد بحكمتها. عند الفجر علت آهاتها فبعثوا في طلبي من بيتي بعد أن استدعوا الأطباء. لم يستطع مَن استنجدنا بهم أن يوقفوا الألم الذي تملك صدرها. تخيل أنها حين رأت نظرة اليأس على وجوههم تبسمت. أبت أن تكون آخر رؤيانا لها جاحظة، وكما اعتادت التحضير للتصوير الذي عشقته، أغلقت عينيها في هدوء واستسلمت لسُباتها الأخير. في تلك اللحظة يا هنري تذكرت أول مرة رأيتها في تلك اللوحة التي ارتدت فيها ثياب الجواري وهي مستلقية في قصر أبيها بالقسطنطينية. لم تقدر السنين على خفت جمالها، ولم تستطع النَّيل من رقتها. رقدت مع بزوغ شمس ذلك اليوم التعيس كما عاشت طوال عمرها: أميرة تشده الناظرين.

جنازتها خرجت مثلما أحبت فازدحمت بالأصدقاء والغرماء. حاولوا

منعي من الحضور لأن تقاليد الشرق لا تسمح بسير النساء في الجنازات. لكني لجأت إلى إنجليزيتي ومع إصراري نزلوا على رغبتي وسمحوا لي بالسير في المؤخرة. تقدم الموكب الحزين مندوب الخديوِ عباس وكاتفه زوجها خليل بوحاجب. أدمى الدمع الغزير مُقلتَي الذي عشقها ولم يأبه لفارق العشرين عامًا الذي سبقته بهم وهو يصر على الزواج منها. وهو يمشي مكسورًا خلف نعشها قفزت إلى ذهني صورته أول مرة التقيناه، في بلده تونس، وقت كنا نزور أختها رقية التي تزوجت أحد نبلاء البلد الصغير. وقع الشاب في غرام الأميرة التي طالما فتنت القلوب. في تلك الزيارة لم يترك جوارها لحظة، وحين حان وقت ارتحالنا إلى القاهرة تبعنا إلى هنا. سهم إصراره أصاب قلبها فأحبته وإن أخفت عواطفها مخافة اتهام مجتمعها لها بالتصابي. لكن صديقها الأثير الشيخ محمد عبده، على مضض ومن أجل راحتها، أزال مخاوفها حين ذكَّرها أن نبيهم محمد ارتبط بأول زوجاته بفارق عمري مماثل. أعادت إليها كلمات الإمام شجاعتها فتزوجت من الشاب الذي وله بها. عجيبة صديقتي في اختيارها للرجال؛ زيجة تستأنس فيها بأبوة مَن يكبرها بعقدين، وفي الأخرى تختار أن تُفيض من أمومتها المكتومة على مَن في عمر ابنتها حواء لو كانت عاشت.

ولأنها نازلي لم تكتفِ بأن تكون مجرد زوجة لشريف من أشراف تونس الخضراء، فأشعت من سناها وأغدقت على البلد من أفضالها. احتفت بتونس واحتفت تونس بها فسرعان ما نقلت صالونها القاهري إلى هناك. منذ حطت قدمها في البلد التف حولها صفوة مثقفيها. أدهشتهم وهي تعرض آراءها بثقة نابعة من روافد معارفها المتعددة لتتفاعل مع ضيوف صالونها في حوارات رفيعة يزينها تمكنها من لغات عدة. هنالك، في بلدة صغيرة، لم تُدرك بعد ما كانت مصر تعيشه من تمدين، علا أثرها وتوجهت إليها الأنظار. لا أدري إن كان فضلها على تونس أكبر أم مآثرها في مصر أعظم. ما أوقنه يا هنري أن صيتها في تونس في رأيي جاوز أي شهرة أصابتها في مصر.

إلى جوار خليل مشى مَن قلبت نازلي حياته. غطى الأسى سعد زغلول الذي يدين لها وحدها بكل ما وصل إليه. تبنته وهو أزهري ريفي فأرشدته إلى مسار حقق فيه ما لم يمر بخلده. لا يمكن أن يكون قد حلم قبل أن يلتقيها أنه سيلتصق باسمه لقب الباشوية أو أنه سيتبوأ يومًا النِّظارة. بنظرتها الثاقبة نصحته أن يتعلم الفرنسية، ثم سعت لأن يُبعث إلى باريس ليُكمل دراسته في القانون. وحين استكمل مسوغات نجاحه العملي، احتضنته وأخذت على عاتقها تزويجه بمَن تُناسب ما توقعته له من نجاح في حياته المستقبلية. كم من أمسيات أمضيتها أحاول أن أثنيها عن إصرارها للضغط على مصطفى باشا فهمي بأن يقبله زوجًا لكريمته صفية. أشهر طويلة وهي تعاود فتح الموضوع مع الباشا فتعيد وتزيد في محاسن سعد وكيف ينتظره مستقبل مشرف. لم يكن أبو صفية مستسيغًا أن يترك ابنته لأحد أبناء العوام، لكن نازلي بلباقتها وإصرارها استطاعت في النهاية إقناعه فوافق على مصاهرة مَن رآه في البدء غير كفء لذلك. لا تستعجب يا هنري، إن دخلت يومًا بيت سعد وصفية، من الصورة الكبيرة لنازلي التي تتصدر صالة الاستقبال عرفانًا بفضلها.

لولا أن الظروف لم تكن تسمح لعلت ضحكاتي وأنا أرى اليوناني العجوز نستور ﭼناكليس يتعثر في خطواته وسط صفوف المشيعين. للوهلة الأولى ظننته جاء يودع أكثر مَن دخنت إنتاجه الأشهر من سجائر هيلمار. سرعان ما تذكرت أن نازلي فاوضته على استئجار قصره بميدان الإسماعيلية مقرًا للجامعة الأهلية . كانت مؤمنة بأهمية التعليم على سبيل نهضة مصر فلم تبخل أن تدفع للرجل ثلاثمائة وخمسين جنيهًا الذي طلبها إيجارًا سنويًا. ظلّا على اتصال بعد ذلك برغم أنه أرهقها في التفاوض.

أما مَن فاجأني حضوره الجنازة فكان مندوب محمد بك فريد. حرص من منفاه في ﭼنيف أن ينوب عنه محامٍ شاب من مكتبه. ذهلت من ذلك وأنا أعرف ما أصاب علاقتهما من فتور بعد محبة. كان محاميها لأطول

فترة قبل أن ينقلب خصيمًا. فرق بينهما عشقه لمصطفى كامل باشا وكراهية نازلي له. لم تتقبل خنوع الباشا للترك وتقربه منهم وداومت على التصريح بأن همه الأول والأخير جمع التبرعات والتشدق بكلمات الوطنية دون أن يصبح فاعلًا حقيقيًا. رأت فيه على غير رأي الكثيرين حبًا للأضواء ودويًا مستأنسًا في قضية وطن ارتأت هي أن على الرجال أن يكونوا أكثر قوة في خوض غمارها. حضرت بنفسي ما أظنه كان القشة الأخيرة في علاقتها بمحمد فريد. يومها كان يزورنا في قصرها بتونس، وكان متأثرًا جدًا بتدهور صحة مصطفى كامل. استوقفتني قسوة صديقتي التي لم أعتدها لما دعت على المحتضر وتمنت موته. وجم الرجل وغادرنا دون أن ينبس بكلمة واحدة. لكنه منذ عاد إلى مصر وهو يهاجمها كلما واتته الفرصة فأصبح عدوًا معلنًا لها. ظل يردد ما أسرت به إليه ذات مرة، بأن الشباب المصري لا يساوي ثمن الحبل الذي يُشنق به. لم يراعِ الأمانة وهو ينقل هذا ليستثير الناس عليها، إذ لم تكن تقصد عموم الشباب، ولكنها كما شرحت لي قصدت أبناء الأثرياء الذين يلهون في الأزبكية وملاهيها الليلية ولا يلقون بالًا لقضايا وطنهم وهموم شعبهم. حين رأيت مندوبه يسير خلف الصندوق الذي يحملها أكبرت في محمد فريد ترفعه عن خلافه معها، وخلقه الذي لم يمنعه من إرسال مَن ينوب عنه في توديعها.

وكما جمعت في صالونها الأنداد والغرماء، تجمعوا مرة أخيرة في وداعها. برفعةٍ تقدم اللورد كتشنر زمرة من الضباط الإنجليز الذين طالما استمتعوا بحضور سهرات فيلا هنري. أضاف وقار هيئتهم هيبة كبيرة لمسيرة فراق مَن ساهمت في تقارب البريطانيين من المصريين وتحملت الانتقادات في سبيل ذلك. لم تُثنها اتهامات طالتها بالعمالة لنا عن السعي لوجود حوار بيننا وبين الشعب الذي نسوسه. آمنت أنه حتى تحين لحظة تحرر بلادها لا يجب أن تكون القطيعة عنوانًا لعلاقة بريطانيا بمصر. أرست، عن قناعة، أسسًا لحوار متمدين بين أبناء وطنها وبين مَن يحكمون أرضهم بديلًا عن إشعال صراع لم تجد بعد قدرة

بالمصريين على التفوق فيه.

لا أدري يا حبيبي لمَ تخيلت قبل أن نصل إلى المدافن أن هناك ممَن سبقوها إلى السموات يتابعون رحلتها الختامية في الأرض. تبدى لي قاسم أمين حاضرًا لمشهدها الختامي في دنيانا. كيف لا وقد بدلت نازلي، بمفردها، سيرته؟ بداياته كانت مقالات امتلأت هجومًا قاسيًا على المرأة المصرية. حمل فيها بعنف عليهن وقارنهن بالأوربيات عقب عودته من باريس. غضبت نازلي من ذلك كثيرًا فطلبت من الشيخ محمد عبده أن يدعو تلميذه لتحاوره فيما كتب. ذهل قاسم حين وجد نفسه أمام تلك الصورة الرائعة للمرأة المصرية المستنيرة التي لا تخشى من فكرها وتبوح بتقدميتها وتثبتها بأسانيد المنطق. انبهر بها أمين مثالًا لما يمكن أن تصل إليه المصرية إذا أتيحت لها الفرصة. تخلى عن قناعاته بأن تخلف الشرقيات لنقص طبيعي في تكوينهن، فانبرى مطالبًا لهن بحرية حُرموا منها. شجعته على ما أصبح به من تغير في الرؤى ومؤّلت من أموالها نشر كتابه الأشهر الداعي إلى تحرير المرأة. ولم تتركه فوقفت إلى جواره وساندته وهو يجابه ما أصابه من هجوم واتهامات بسبب ما دعا إليه ممًا لم يألفه مجتمع اعتاد الذكورية. إلى جانب قاسم لم يكن بي شك أن الأمير مصطفى فاضل يراقب بفخر الموكب الذي يزف صغيرته الشجاعة إلى السماء. ولا بد أن يكون محمد عبده في انتظارها هو الآخر.

ترن في أذني الآن وأنا أختتم رسالتي هذه نغمات الموسيقى الجنائزية التي عزفها جنود مُنكّسي السلاح وهم يرافقون نازلي حتى مثواها الأخير. نغمات اختلطت مع ذلك الرذاذ الخفيف الذي بعثته السماء ونحن ندخل المدفن وكأنها تشاركنا بكاءنا على مَن نودع.

كلما استرجعت أثرها على هذا الكم من أعلام الرجال، تغلبت ابتسامة تفاخري بها على وجع فقدها. سعيدة أن كنت جوار هذه العظمة، وأن حباني القدر بتلك الصديقة التي أثرت أيامي وأضافت معنى لحياتي. أتمنى فقط لو أني استطعت أن أخبرها للمرة الأخيرة بما يجيش به

صدري. أريد أن أقول لها إني منذ قابلتها وعرفتها وأحببتها أصبحت إنسانة أفضل. سأحمل ذكراها معي ولن تفارقني لحظة. سيضيء نورها قلبي ما حييت، حيث ستظل شاغلة أهم أركانه.

سامحني يا هنري إن كنت نقلت إليك حزني وأشجاني. أعلم أن قلبك مماثل لقلب أمك، وأنك ستقدر وتتفهم قدر خسارتي وعظيم مصابي. الليلة يا حبيبي هي الأخيرة لي في مصر، فحين يأتي الصباح سأبحر عائدة إلى وطني، أو لعلي سأبحر تاركة وطني.

المخلصة لك

ليديا

24

مفكرة سيدني بويد

27يوليو1914

شعرت بنوعٍ من الخجل والتقصير لما استدعاني السيد «سي» مبكرًا صباح اليوم إلى مكتبه وبادرني متسائلًا إن كنت قد عرفت بما حدث أول أمس. غلف اللوم نبرات صوته وهو يخبرني:

- حاول شاب مصري أن يغتال الخديوِ عباس وهو في طريقه للباب العالي.

لفت نظري كلمة حاول في حديث المدير، فأدركت أن المحاولة لم تنجح. مد يده برسالة تلغرافية ولم يواصل حديثه حتى انتهيت من قراءتها فوجدتها تقريرًا من سفارتنا في القسطنطينية:

«الخديوِ كان في طريقه إلى الباب العالي حين اقترب منه شاب مصري وصوَّب نحوه مسدسًا. برباطة جأش أمسك عباس بيد مهاجمه فلم يُصبه سوى ثلاث رصاصات غير مميتة في ساعده الأيسر. تحول الشارع إلى معركة حربية؛ لأن الحرس العثماني، كما ادعوا، ظن أن هناك انقلابًا مدبرًا ضد السلطان، فسقط أكثر من ثلاثين شخصًا، ومنهم الجاني الذي تأكد الحرس من قتله. حالة الخديوِ مستقرة وأكد الأطباء ألا خطورة تُذكر من إصاباته على حياته»

حين انتهيت من قراءة التلغراف وأعدته إليه، سألني ما الذي لفت نظري في المكتوب. كانت هذه طريقته في تعليم موظفيه بأن يدربنا على قراءة ما بين السطور. حين طال سكوتي بلا رد علت ابتسامة

المنتصر وجهه وبدأ في الشرح:

- لقد تأكدوا من قتل الجاني وكأنهم لا يريدون أن يدلهم على دوافعه ومَن وراءه. عادة حين يحدث هذا يجب علينا أن نشك في أن ذلك كان غرض الحرس العثماني، وإن كان هذا غرضهم فلا بد يا سيدني وأن يكون التدبير بتعليمات من الباب العالي. الغريب هنا أن الخديوِ عباس من مؤيدي وأتباع السلطان، فلماذا أرادوا التخلص منه؟ أريدك أن تغوص في هذا الموضوع وتبحث عن مسببات هذه المحاولة الفاشلة.

لم يطل حديثنا بعد ما قال، لكن حين قمت بالانصراف سألني سؤال أخير:

- هل ودَّعت صديقتك؟

- ليديا غادرت يوم الجمعة الماضي إلى مصر.

- لا أعتقد أنها ستكون ذات نفع لنا من جديد.. انتهى دورها!

كان السيد «سي» على حق في هذا، فقرار ليديا بالرجوع إلى مصر لم يشتمل على رغبة منها في معاودة العمل أو إرسال تقارير من هناك. كما أخبرتني قررت العودة إلى حيث أصبحت تشعر أنه موطنها لتقضي ما تبقى لها من عمر في هدوء.

الأشهر الماضية شهدت توطد علاقتي بليديا فأصبحنا أفضل الأصدقاء. لم أعد بحاجة لتبرير تعاطفي معها. رسائلها لهنري، أو بالأحرى دانيال، جعلت بيننا رباطًا إنسانيًا وثيقًا. أخذت على عاتقي أن أخلصها من المشاكل بعدما عرفت كم الحزن الذي كابدته.

سعيت إلى حل موضوع العقد والأرمن سريعًا حتى لا تطول حاجتها للاختفاء عن الأنظار. تقدمت باقتراح للمدير وأنا قلق من أن يرفضه، لكنه فاجأني حين صدَّق على مذكرتي ورفعها من أجل الحصول على موافقة التنفيذ. تلخص مقترحي في أن تقوم الحكومة البريطانية بتعويض ليديا بنفس قيمة العِقد مقابل تنازلها عنه للأرمن. ثمنت دورها

الذي لعبته في خدمة الوطن عبر سنين غربتها، ورجوت أصحاب القرار أن يعتبروا المبلغ المزمع دفعه لها مكافأة عمّا قدمته. وعلى غير عادة المجريات في أروقة حكومتنا جاءتنا الموافقة سريعًا وتم الصرف. لا بد وأن آلهة البيروقراطية كانوا في إجازة في تلك الأيام فلم تواجه فكرتي العراقيل.

ما لم أخبر به الإدارة كان ما سعيت له مع تيجران وجوقته الأرمنية. حكيت له الكثير عن ليديا وما عانت في حياتها وأكدت له أن نازلي التي أهدتها العقد كانت من كبار معارضي عبد الحميد الذين يكرهونه. النقطة الفارقة كانت عندما أطلعته على خطاب أبي نازلي للسلطان وكيف أصرت نازلي على ترجمته ونشره كجزءٍ من معارضتها الشديدة لضيم عبد الحميد وظلمات حكمه. كان غرضي أن أحمس الأرمن فيكرموا ليديا من جانبهم. سعدت يوم رافقني صديقي الأرمني لاستلام العقد لمّا وجدته يُخرج من جيبه علبة عليها اسم الجواهرجي هاجوبيان. كان بداخلها سوار ذهبي رفيع قدمه لها وهو يعبر عن امتنانهم لها ويعتذر عن أي مشقة قد تسببوا فيها.

منذ ذلك اليوم تعددت زياراتي الأسبوعية لها في البيت الذي انتقلت إليه على بعد شارعين من الفندق. لم تعُد هناك أسباب تخص العمل للقائنا، ولكن أصبح بي إحساس بأني مسئول عنها. آخر ما خص العمل كان حديثًا دار بيننا عن حسين كامل. يومها أكدت حدسي فيما يخصه حين أخبرتني:

- صراعات الأسرة العلوية الداخلية رهيبة يا سيدني. كل فرع وكل أمير منهم مقتنع بأنه الأحق والأجدر بالجلوس على كرسي الحكم. حسين كامل بالذات لديه شعور متضخم بالمظلومية بخصوص هذا الموضوع. طالما شكى لنازلي أن توفيق سلب حقه في ذلك وأنه جاء على غير رغبة أبيه، الخديوِ إسماعيل، الذي كان يُعده هو للحكم من بعده.

فاجأتني حين سهمت قليلًا قبل أن تقول:

- أتدري؟ لو عُرضت عليه الخديوية سيقبلها أيًا كان الثمن!

ثم أخذ حديثها منحى آخر وهي تحكي لي رأيها في أسرة محمد علي. لم تكن ليديا من المعجبين بعائلة نازلي. رأت أن مشكلتهم الأساسية تركزت في اعتقادهم بأنهم أعلى شأنًا وأرقى ممَّن يحكمون من المصريين، وفي نفس الوقت تتملكهم الدونية فيما يخص العثمانيين وساكني الباب العالي. ضحكت وهي تستعيد كيف داومت نازلي على تكرار أن جدها الأكبر أخطأ حين استجاب للضغوط وأعاد إبراهيم باشا وجيشه بعد أن فتح الشام وكان على أبواب الإنهاء على الإمبراطورية العثمانية. طالما ندموا أن فاتهم تحقيق ذلك الحلم وكسرهم أن القسطنطينية ظلت تسودهم.

أعجبني في ليديا سعة اطلاعها وثقافتها والتي أوعزتها حين تساءلت إلى مداومتها على القراءة في شتى المواضيع. كانت لديها إجابة عن كل ما أسأله. أتذكر الإبهار الذي أصبحت به لما استعلمت منها عن سبب استخدامها حبرًا أزرق في كتابة رسائلها والدارج هو الحبر الأسود.

- هل تعلم أن الإغريق والرومان لم يسموا هذا اللون حتى إن هوميروس في الإلياذة وصف لون البحر بالأحمر النبيذي. هو لون الأغنياء والملوك، ستجد في اللوحات أنه لون ثيابهم، فيما يلبس العوام الأخضر والبني. لعلي أحبه لأنه مرتبط في ذهني بالعذراء مريم، فهي ترتديه في أغلب تصاويرها. أحب هذا اللون وإيحاءات النقاء الذي يعطيها لي. ربما لأنه لون سماء وبحر الشرق حيث قضيت معظم عمري فأصبح لوني المفضل. الإجابة يا سيدني هي أنني لا أدري على وجه اليقين لماذا كتبت بالحبر الأزرق، لكن ما أنا متأكدة منه أنه كان يعطيني صفاءً وهدوءًا وأنا أسطر ما أسطر.

أحزنني قرارها بالعودة لمصر، وعرفت أني سأفتقدها كثيرًا. لم أحاول إثناءها عن عزمها بعد أن أسرت لي أنها تشعر بالغربة في إنجلترا، وأن

مصر هي الموطن الذي يسكن فؤادها. أضافت أيضًا أن أحد أهم دوافعها أن رزق، مرافقها، لم يجد راحة هنا. تفهمت من تلميحاتها أنه حاول التأقلم هنا ولكن ظل اختلاف لون بشرته يطارده في أعين أهل وطني الذين يتحاشون ما لم يعتادوه.

برغم التقارب الذي أصبح بيننا، لم تُفضِ لي بسبب اصطحابها لمرافقها الأسود حين عادت لتستقر في بريطانيا. ولأني أصبحت أعرفها جيدًا فلم أحاول أن أستقصي منها ما يخصه. ليديا ببساطة تحكي ما تريد، وبها قدرة هائلة على الزوغان ممَّا لا تجد رغبة في الرد عليه. لو كانت تريدني أن أعرف أكثر عن رزق لحكت لي من تلقاء نفسها.

أعدت إليها حافظتها الجلدية وما بها من رسائل. لكن لم يفتني مع توالي لقاءاتنا الاستفسار منها عمَّا حيرني وأنا أقرأ خطاباتها لهنري. سألتها عن تباين الفترات بين الرسائل فأخبرتني بأنها كثيرًا ما مزقت ما كتبته. الأغرب أنها أضافت قائلة إنها منذ مطلع القرن أو قبل ذلك بقليل كانت تكتب لأحدٍ آخر. وكعادتها لم تفصح عمَّن كان هذا الآخر. لم أحتجْ إلى أن أسألها عن سبب أنها أعطتني دون غيري تلك الرسائل، إذ كانت كثيرًا ما تخلط الأسماء فتناديني «يا هنري»، ونحن نتبادل الحديث. أدركت وقتها أني أذكرها بابنها الذي تركته رضيعًا. كانت هي مَن قرر يومًا أن تشرح أسبابها فأكدت صحة توقعي. صرحت لي بأنها من أول لحظة رأتني وجدت فيَّ صورة تطابق تخيلها لابنها المفقود. ثم أضافت في شجنٍ أنها ارتأت أن رسائلها تستحق أن تُقرأ. في تلك اللحظة علت بداخلي مشاعر متباينة من التعاطف والشفقة لتختلط بإحساس تميُّز بأني دون غيري اختارتني لتشركني في أمر بهذه الخصوصية.

طوال الفترة الفائتة ظل السر الذي أخفيته عنها يؤرقني. أردت وحاولت مرارًا أن أخبرها بأن ابنها حي، ولكن في كل مرة جبنت وتراجعت. تهديد اللورد هارفي ومن بعده تحذير السيد «سي» لي لما حكيت له ما علمت، أوقفاني على ما أملاه عليَّ ضميري بحقها أن تعرف.

شدَّد مديري على أننا لا يجب أن نخلط الأمور الشخصية مع مصالح العمل. أكد عليَّ يومها ومن بعدها عدة مرات ألا أتدخل في هذا الموضوع، وأعاد تنبيهي مرارًا بوجوب استمرار صمتي. أصبح ❞ بي توجس قوي أن اللورد قد اتصل بمديري «سي» وهدَّد بما هو قادر على فعله إن لم ألتزم الصمت.

لكني تغلبت على مخاوفي يوم أبلغتني بأنها عائدة إلى مصر. قررت أن أتحمل مغبة إخبارها مهما كانت. أحسست بأن استمراري في إخفاء ما أعلم ظلم لها لا يجب أن يستمر. أثناء زيارة قبل أسبوعين واتتني الفرصة لما تركنا رزق وحدنا. تلعثمت قبل أن أبدأ في البوح بما أثقل صدري. تجمَّد وجهها تمامًا وهي تسمع تفاصيل ما توصلت إليه. انهمرت دموعها لتختلط مع بسمة ارتياح ورضا قبل أن يغلبها نحيب بدا لي أنه لن ينتهي. لم تنطق وإن تناوبت على تقاسيم وجهها الغبطة واللوعة من فداحة الاكتشاف. لم أشعر بنفسي إلا وقد قمت إليها واحتضنتها تاركًا إياها تبكي على صدري فيما دمعت عيناي. قدَّرت أنها ستؤجل سفرها وستطلب مني أن آخذها إلى دانيال. آخر ما توقعت كان ما نطقت به وهي تحاول أن تتمالك نفسها:

- سأدعه في حاله يا سيدني.. لا أريد أن أنغص حياته بوجودي.. لن يفيده أن أقلب دنياه رأسًا على عقب بظهوري.

لم أخطر المدير بأني سأرافق ليديا إلى ليفربول في طريقها إلى الإسكندرية. أظنها عمدت إلى الانتحاء بي جانبًا بعيدًا عن رزق وهي تسلمني ظرفًا أصفر كبيرًا، محكم الغلق، قبل أن تصعد إلى الباخرة. أوصتني وأنا آخذه منها:

- حين يصلك خبر وفاتي افتحه وستجد بداخله تعليمات إلى مَن تسلمه.

25

لندن 14 يوليو 1914

رزق العزيز..

أن يكون بيدك خطابي هذا معناه أن الرب اختارني إلى جواره. ستكون قد أخبرت سيدني بويد، كما أوصيتك مرارًا، بخبر وفاتي. حين يعلم بذلك سيفتح الظرف الذي سلمته إياه قبل مغادرتنا إنجلترا ليجد فيه طلبي بأن يحرص على إيصال ما بداخله إليك. ما تحتويه هذه الرسالة ليست وصية أو ما شابه، فأنت تعلم أني قد وهبت لك كل ما أملك في حياتي. كتابي هذا في حقيقة الأمر اعتراف بما لم أجسر على أن أخبرك به في حياتي.

اعذرني لو أن سطوري طالت ولكني أفضل أن أحكي من البداية. والبداية يا حبيبي مع دخول بشير داري ليرعاني كما أصرت نازلي. بالطبع كنت أعرفه من قبل ذلك، فقد كان جزءًا من حاشية صديقتي، ولكن للأمانة لا أستطيع أن أقول إني لحظته وقتها. من أول ما تولى أموري، أصبح حضوره طاغيًا على كل مجريات حياتي. يومًا بعد يوم وبهدوءٍ انسل بي شعور بالأمان تحول إلى سكينة وطمأنينة ثم ارتياح. أو هكذا اخترت أن أسمي مشاعري التي تكاثرت عليَّ وأنا أعلم ألَّا بديل سوى أن أبقيها حبيسة صدري. لكن الحب يا رزق له جبروته وطغيانه، بل إن له كبرياءً يأبى معها أن يُكبَّل، فيرفرف وإن حاولنا كتمانه. بالتأكيد خانتني نظراتي الولهة وأنا أتابع بشغفٍ روحه ومجيئه أمامي يومًا بعد يوم. جميلًا كان بسماره ذي اللمعة الأخاذة، وجسده المفتول الذي يُشده الناظر من كماله واكتماله، وتقاطيع وجهه دائمًا متوجة بابتسامة ناصعة تتناغم مع صوتٍ أجش، مثيرٍ وحانٍ في نفس الوقت. لا أريدك أن تظن أني وقعت في غرام الجسد، فقد كانت روحه على

نفس القدر من الروعة. كيف أطالَب بألَا أقع في غرام مَن لا يترك جانبي قبل أن يطمئن عليَّ، ولا يتوانى في عمل أي مطلب لي، ويلفني برعايته ليلًا ونهارًا.

قاومت كثيرًا ما أصبح بي من شغفٍ وعاطفةٍ نحوه. تارة ألوم نفسي أن طغت عليها شهوة، وتارة أخرى أحاول أن أحاورها لأقنعها بأن ما بها من حب غير منطقي. أصبحت كفتاة مراهقة مملوءة سعادة، وفي الوقت ذاته قلقة ممَا يلازمها من أحاسيس لم تعتدها. لكني تغلبت على ترددي فقررت أن آخذ أموري بيدي، وأن أعبر بإرادتي ذلك الجسر الذي يبعدني عن مرادي. أتذكر ذلك اليوم جيدًا وقد خلا البيت علينا بعد أن أعطيت الجميع إلا بشير إجازة. أعلم أن في كتابكم المقدس قصة يوسف ومَن راودته عن نفسه. ذلك بالضبط نفس ما حدث بيننا يا رزق كما في آية الإنجيل التي تقول: «فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: اضْطَجِعْ مَعِي! فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ». برفقٍ خلّص بشير نفسه من يدي وأنا أعطيه نفسي. لم يهرب إلى الخارج كيوسف، ولكنه أحكم قبضته، بحنان، على ذراعي وهمس بحب: «أريدكِ بكل ما فيَّ، لكني أريدكِ في الحلال». في اليوم التالي تزوجنا، وإن أصر بشير على أن يستحلفني على شرط واحد: أن يظل ما بيننا سرًا لا يعرفه إنسان. سأطلعك يا رزق على سرٍّ آخر لا يعلمه مخلوق: حنثت بوعدي له حين لم أقدر على إخفاء فعلتي عن نازلي. رجوته كثيرًا أن نعلن زواجنا فرفض بشمم ونبل أن يعرضني لنظرات استهجان مجتمع لا يرضى سوى بالمألوف. كم تمنيت مرارًا أن أصرخ بأنه زوجي وهو يجاورني كخادم أمام المعارف والأصدقاء. يقولون إن الحب يحتاج حرية الإفصاح كي يعيش ويترعرع، ولكن أثبتت الأيام لي ولبشير أن الهوى يسود مهما كانت العراقيل. برغم الكتمان الذي تعاهدنا عليه سعدنا بعشقٍ لم ينضب يومًا. كان خادمي في العلن، ومليكي حين يُغلق علينا بابنا.

الوقوع في حب أبيك يا رزق كان سلسًا. كيف لا أغرم بمَن يعاملني معاملة الأميرات؟ أتكلم فيسمعني بكل حواسه، أطلب فلا يكل حتى

يُلبي ما رغبته، وأتمنى فلا يهدأ إلا وما تُقت إليه قد تحقق. كنت امرأة وحيدة في بلد غريب فملأ حياتي بشخصيته التي أحاطت بي وملأت كل فراغ كان بي. وجوده حولي كان حضنًا دافئًا ومَعينًا لا ينضب. رقته وحنانه لا أكتفي منهما، ولا يبخل عليَّ من فيضهما. جذبتني روحه المعطاءة، وفتنني جسده الرائع، وولعت بسعة مداركه. ثقافته كانت مذهلة تأسر مَن يقترب منه ويخترق جدار الصمت الذي اعتاد أن يحيط به نفسه. في البداية كنت أستغرب كيف له أن يكون مُلمًا بهذا الكم من المعارف، لكني مع الوقت وجدت أنه لا يترك الكتب كلما سنحت له الفرصة. حكى لي كثيرًا عن اهتمام أبي نازلي بتعليمه، وكيف كان يُجلسه إلى جانبه فتطول بينهما الأحاديث عن شتى أمور الدنيا، وقبل أن تنتهي جلستهما لا ينسى الأمير أن يعطيه كتابًا جديدًا ليقرأه. لو أن البشر لا يُصنّفون بالأجناس، لتبوأ أعلى المناصب بما نهل من العلم والقراءة وهو يشب في بيت مصطفى بهجت فاضل. لكن تلك الثقافة وحدها لم تكن هي فقط ما جذبني إليه.. لقد تجمَّعت فيه كل صفات الرجولة التي وصفها مؤلفو الروايات الرومانسية. في أوج قوته وشدته تتبدى رقته، ويبرز حنانه. لفَّني دائمًا براحة وجوده إلى جانبي، ومساندتي حينما يصيبني ضعف أو يأس. أبوك يا حبيبي كان الرجل الحلم لأي امرأة، بالذات لو استطاعت - مثلما فعلت أنا - أن تتجاوز حدود اللون.

مرت السنون وسِرُّنا دفين حتى تفاجأنا ببذرة بشير وقد استكانت بداخلي. أصر من جديد على ألّا نعلن ما بيننا، فاتفقنا أن أخفي حملي وأتوارى عن الأنظار بالرحيل إلى لندن حتى يحين ميعاد وضعي. استضافتني هناك، دون مساءلة، الأيرلندية الطيبة روزماري. أجمل ما في صديقة عمري أنها لا تحكم ولا تطلب تفسيرًا. أسرتني طيبتها وتقبلها فعزمت على أن لا أتبع ما خطط له بشير بأن يظل ما سيفرزه رحمي سرًا. أردت أن يكون وصول المولود إعلانًا للعالم عن عشقي للشريف الأسود الذي ارتبطت به. لكن يا رزق نظرة صديقتي الأيرلندية الملتاعة، وكم الفزع الذي اعتلى وجهها حين أفرز جسدي الأبيض

مولودًا أسود جعلتني أتراجع بعد أن أصبحت موقنة أن ما خطط له زوجي هو الأفضل. الدهشة المختلطة برعب في عينيها لخصت حينها كل ما كنا سنعاني منه جميعًا لو أقدمت على البوح. تغلبت عليَّ عنصرية بغيضة أدمنها بنو عرقي وأصحاب لون بشرتي. عنصرية لا أعلم إن كنت ضحيتها أم أنها سبب إجرامي.

من وحي النظرة التي اجتاحت وجه الأيرلندية الطيبة، استعمر مخيلتي كلها ما سنقاسيه من رفض ولفظ، فآثرت جبنًا، مخافة تعقيدات الحياة. تحول فكري جراء دهشة مضيفتي والرعب الذي تملكها، فحرصت على تنفيذ خطة بشير بحذافيرها. استأجرت سوداء لتعود حاملة إياك. أردنا بما أقدمنا عليه أن نربأ بأنفسنا من تساؤلات الأعين لو حملت أيادي بيضاء الرضيع. استكملنا الكذبة بإعلانه ابنًا لبشير من زوجة، لم يعلن عنها، توفيت أثناء الوضع. علوت في أنظار المحيطين لما علموا أني من كرمي قررت أن أربي يتيم خادمي. يتيم أمه راقبته عن بعد وأبوه يستقبله لأول مرة في وطنه.

كنت أنت يا رزق مَن حملته المستأجرة السمراء من ليفربول إلى الإسكندرية. أتوسل إليك أن تسامحني يا حبيبي عن إخفائي عنك طوال عمرك أني أمك. نعم ربيتك وعاملتك وحنوت عليك كما يجب على الأم أن تفعل. لكني حرمتك، نزولًا على رغبة بغيضة لمجتمعي، من أن تناديني: يا أمي. حرمتك من قولها وحرمت نفسي من سماع أغلى ما يشجي قلب أم. كل مرة احتضنتك فيها انتقص متعتي بضمك عدم همسك في أذني بتلك الكلمة. عزائي أن رصيدي لديك قد ييسر غفرانك لفعلتي الشائنة.

أعلم أن ما أخبرتك به لتوي عمّا ضننت عليك به قد يستوقفك هنا فلا تُكمل سماعك لبقية قصتي. لكني سأحكيها على كل حال لعلك، حين تسامحني، تعاود قراءتها.

حين عدت أحملك من لندن، نفذت ما طلبه أبوك، وهذه المرة لم أسر

بك حتى لنازلي. ظللت يا حبيبي سرًا لا يعلمه سوى بشير وروزماري حتى يوم رحيلي. اختار لك سيد البيت اسم رزق على اسم والده. كم أحببت اسمك وما به من رحابة المعاني. كلمة واحدة تحتضن بين حروفها معاني النعمة والرغد والهبة والوسع والسعد. أتعلم يا رزق أنه لا توجد كلمة واحدة بالإنجليزية تعبر عن كل معاني اسمك وإن حاولنا؟ أصبحت فعلًا نعمة حباني بها الرب عوضًا عن أي حزن مسَّ حياتي من قبلك. وكأن القدر اختار أن يعوضني بك فيجعل منك نبعًا مستديمًا لسعادتي ونعيمي.

لكنه نفس القدر الذي اختار لي فقدانًا جديدًا لمَن عشقته روحي. قرر بشير أن يمارس حريته التي منعها على نفسه طوال حياته. في صبيحة يومٍ كئيبٍ أخطرني بأنه قرر الرحيل إلى الجنوب لينضم إلى أهله وعشيرته في صراعهم ضد الغبن. لم أستطع أن أثنيه عن أن يكون حرًا فرحل لينضم إلى المهديين في السودان. أوصاني مع قبلة وداعه أن أكتب له كل يوم كي لا تفوته تفصيلة تخصني أو تخصك فترة غيابه. حافظت على وعدي له حتى يومنا هذا برغم أني لم أسمع منه منذ موقعة أم درمان المشئومة. ظللت أكتب طوال هذه السنين وبي أمل أن أجده يطرق بابنا عائدًا إلى حضني. قدري فيما يبدو أن أكتب فلا تُقرأ كلماتي.

ستجد في الصندوق الخشبي الكبير المجاور لسريري كل خطاباتي اليومية لأبيك. ستجد أيضًا حافظة جلدية بها خطابات كتبتها لأخيك، الذي لا تعلم بوجوده. أخوك الذي هربت من فضيحة مولده وتركته يلاطم الحياة دون أمه. ابن تركته لمصير مجهول وآخر حرمته من أمومة كاملة. لا تحكم عليَّ أني أم بائسة، ولكن حاول أن تتفهم ضعفي أمام ما أملته عليَّ الحياة.

حين أخبرني سيدني أنه عثر على أخيك، وجب عليَّ اختيار صعب. وقتها شعرت بأن جزءًا مني ظننته مات قد عاد للحياة. تسارعت نبضات قلبي وأنا أتصور ملمسه وأنا أضمه. أردت حينها أن أركض إلى

حيثما يكون لآخذه في حضني بلا إفلات. بكيت وابتسمت في آن واحد وأنا أتأرجح ما بين اطمئناني عليه ولوعتي لطول فراقنا. حينذاك، ومن وسط المشاعر المتباينة التي تملكتني، استغربت نفسي وأنا أصل لقرارين. أولهما أن أتركه لحاله وأن يظل كما هو في مخيلتي. خفت أن يلفظني دانيال وأنا مَن لم أتوقف عن حب هنري. كفاني وجودك في حياتي كي أستمسك بما عزمت. أما قراري الآخر فكان أن أخبرك بأني أمك. أجمل ما فيك يا رزق أنك جُدت عليّ دومًا بحنان وعاطفة الولد البار. لم أتوقف يومًا عن النهل من فيض حنانك الذي ورثته عن العزيز الذي تركك لي أغلى هدية.

سألتني مرارًا عن سبب انجذابي لسيدني، وفي كل مرة راوغتك ولم أفصح لك عن السبب الحقيقي. الآن وقد عرفت بوجود أخٍ لك سترتبط بذكائك المعهود أني تعلقت بهذا الرجل الغريب عنّا لأنه جسّد لي ما تخيلته عن الابن الذي هجرته. يوم سألته عن سنه وعرفت أنه في نفس سن هنري وجدتني وقد ارتبطت به بصورة مستغربة. بياض بشرته وشعره الأشقر وإنجليزيته في العموم جعلتني كلما تقابلنا أراه هنري لا سيدني.

أتركك يا رزق وأنا سعيدة بما شببت عليه، رجلًا مفخرة لأمه. قرة قلبي وما تنعم عيناي برؤيته: شاب وسيم واسع الثقافة يتحدث ثلاث لغات فيتقنها بلكنات أهل بلادها. ما الذي يمكن أن تطلبه أم رزقًا أكبر من أن يكون ولدها شهمًا، حسن الخلق، طيبًا، محبًا للناس وللخير. طالما اختلت بالرجل الذي ربيته وما يحمله فؤاده من طيبة وحنان تكفي وتفيض في عالم شره غالب.

الآن وقد رحلت أطمع في عفوك وكرمك يا حبيبي. اغفر لي أني لم أجب توسلات عينيك وأنت ترجوني أن أفصح. سامحني على ما بخلت عليك به وحرمتك منه. أستجدي ما بك من تلطف أن تكون رفيقًا بي، أمك، فلا تلفظ محبتي من فؤادك. محبتك هي ما هونت عليّ حياة لم أكن لأنجو من قسوتها لولا وجودك فيها. كلي أمل أنك ستسامحني.

أعلم علم اليقين ما بقلبك من نقاء. أريدك يا بني، أن تعلم أن أمك لم تحب في حياتها مثلما أحبتك.

أودعك يا رزقي بكلماتٍ لا أشك أن إليزابيث براوننج حين أبدعتها قصدت أن تقولها على لسان أمثالي من العاشقات:

كيف أحبُّكَ؟

دعني أعدّد لك

أحبُّكَ

بسعةٍ وعمقٍ وسموٍّ

ما بروحِي من استطاعةٍ

وأنا مُتواريةٌ عن الأنظَارِ

لنهاياتِ الوجودِ وتمامِ النِّعيم

أحبُّك

كحاجةِ كل يومِ الكامنة

لضياءِ الشمسِ ونورِ الشموع

أحبُّكَ

كنضالِ الرِّجالِ من أجلِ الحق

وبنقاءِ بُغضِهم للثناء

أحبُّكَ

بمشاعرَ تاهت وسط أحزانٍ عتيقة

وذابت مع معتقداتِ الطفولة

أحبُّك

حُبًّا ظننتُ أنه ضاع

مع مَن رحلوا من الأطهار

أحبُّك

بكلِّ ما في عُمري

من أنفاسٍ وابتساماتٍ ودموعٍ

وإن قدَّر لي الرَّبُّ،

سأحبُّكَ أفضل بعد مماتي.

أمك

ليديا